

﴿ الجزء التاسع ﴾ ﴿ السنة الثالثة ﴾

مجلة علمية تهذيبية تاريخية صحية

﴿ الاسكندرية — اغسطس (آب) سنة ١٩٠٢ — جمادى الاولى سنة ١٣٢٠ ﴾

مشاهير المتقدمين والمتاخرين

مشروع جديد في اللغة العربية

﴿ يسرّ قراءها ﴾

(اوّله برناردين وكتابه الخالد)

سمع بعضهم في مجلس حضره الجنس اللطيف والجنس النشيط الحديث التالي

قال احد الحاضرين : هاتوا مائدة اللعب · يريد لعب الورق · فقال جليس آخر : لقد كرهت نفوسنا هذا اللعب الممقوت فهلا ارحتمونا منه · فبادرته احدى السيدات بقولها : ماذا نصنع اذا لم نلعب · هل نصرف وقتنا بالتثاؤب والنوم ام بالاغتياب والنميمة بالناس · فاجابها ذلك الجليس : اقرأي ايتها السيدة وطالعي · فقالت السيدة ضاحكة · ماذا تريد ان اطالع فانني لا اجد شيئاً يلذ لي

﴿ راي امّ ﴾ فقالت حينئذ ام فاضلة كانت تصغي بانتباه ودلائل الفضل والعقل على وجهها" لقد مسّت حضرة المدام في قولها هذا مكاناً مؤلماً تجب مداواته · فانني قبل حضوري

من البيت الى هنا اردتُ اعطاء ابنتي كتاباً جديداً تطالعه في مدة غيابي لئلا تضجر من الانفراد فاقمت ساعة افتش في مكتبتي عن كتاب يسلّي العذراء ولا تضرها قراءته فلم اجد . فعدت واعطيتها كتاباً انكليزياً . ولا يجب الاستدلال بذلك على فراغ مكتبتي لانها تتضمن كثيرًا من الروايات والكتب القديمة والحديثة . ولكنني اخشى على آداب ابنتي وعلى اخلاقها من مطالعة الروايات التي يحشوها مترجموها بما يفسد الاخلاق والآداب. والكتب التي بين الايدي لا تلذ لها لانها قديمة . فمتى تبطل شكوى الامهات والعائلات من هذه المسالة »

﴿ رأي معلم ﴾ فاجاب معلم كان في جملة الجالسين « اننا نشكو هذه الشكوى جميعاً ايتها السيدة. وكلنا في حاجة الى الكتب التي تشيرين اليها . فان تلامذتنا كثيرًا ما يسالوننا كتابةً وشفاهياً « ما هي الكتب التي تجب علينا مطالعتها ورسم مواضيعها في اذهاننا في اوقات الفراغ فاننا نسأم الكتب المدرسية « فنجيبهم « طالعوا ذاك الكتاب الانكليزي . وهذا الكتاب الفرنسوي . الخ » وقلما نذكر لهم كتاباً عربياً . وهو غبن لهذه اللغة العربية الكريمة التي نعشقها ونحب المطالعة بها . اما الروايات التي ذكرتِها فانها مفسدة للاخلاق والآداب بلا مراء ولذلك احسنتِ بمنعكِ ابنتكِ من مطالعتها . ولكن هذا المنع لا يكون فعالاً الا متى صدرت روايات تهذيبية تقوم مقامها ولا يكون الغرض منها غير نشر الآراء الادبية والاجتماعية والفلسفية في ثنايا الفكاهة . فهل تُنشر في اللغة العربية روايات كهذه الروايات لتغذي نفوس الفتيات في البيت والفتيان في المدرسة . لا ريب في اننا نحن المعلمين نوجب على كل تلميذٍ لنا اقتناء هذه الكتب حين صدورها . بل اننا نقرأها مع تلامذتنا في اثناء الدرس ونشرح لهم ما خفي وظهر من معانيها فيكون ذلك لهم بمثابة درس اختباري جديد يرون فيه عالم الكمال والصلاح فتتقوى به نفوسهم وتتشدد قبل نزولها الى ميدان العالم الفاسد »

﴿ رأي كاتب ﴾ وكان هنالك كاتب يصغي اليهم وهو يبتسم . فلما سكتَ المعلم قال . « كنت اظن ان الاستاذ يتناول هذه المسالة من جهة اعلى من هذه الجهة . فانني اسلّم معه بافتقار اللغة العربية الى الكتب العالية ولكنني لا ارى نشر هذه الكتب واجباً لتغذية عقول الفتيان والفتيات بل اراه واجباً لانه يجب للغتنا نفسها وحرصاً على سمعتها . ومعنى ذلك اننا لا نطلب امهات الكتب العالية لما نرجو من فائدتها بل نطلبها لذاتها لانه عار علينا ان لا نكون قد ظفرنا بعدُ بشيء منها فضلاً عن استدلالنا بمجرد ظهورها على ارتقاء

الافكار عندنا . ولو عاش الخليفة المامون في هذا الزمن لضحك ولا شك من تهاوننا وقعودنا عن استخراج كنوز المعارف الاوربية كما استخرج في عهده وبامره كنوز المعارف اليونانية تاييداً للنهضة البغدادية . فهل لدينا الكتاب الادبي الجميل الذي الفه الغزالي وعنوانه « ايها الولد » . هل نشرنا كتاب « الطريق » لديكارت . هل ترجمنا شيئاً لكوت . هل طبعنا « الميزرابل » . هل نقلنا كتاب «نقد العقل المجرد» لقنْت . هل نشرنا « بولس وفرجيني » . هل عربنا « اميل . والميثاق الاجتماعي » . هل لخصنا سبنسر . هل ترجمنا كتب افلاطون الالهي . هل عربنا تراجم فلوطرخس التي نفضلها على الالياذه والاوديسه . هل ورد اسم باكون باللغة العربية في غير المقتطف والجامعة . هل نُشر تاريخ المسيح والديانة المسيحية لرنان قبل هذا العام . هل لدينا تاريخ لتمدن العرب يفصل بجراءة وشجاعة الاسباب الحقيقية التي بها عظمتْ دولة العرب وبها ضعفتْ وانحطَّت والتي لم يجسر صاحب كتاب « تاريخ التمدن الاسلامي » الذي صدر في هذا الشهر على الاشارة اليها فجاء كتابه ناقصاً اهمّ مواضيعه »

﴿ راي مريض ﴾ وكان في زاوية في القاعة شاب مستلق على مقعد وعليه غطاء يدل على اعتلال صحته . فلما راى هذا المريض الضجر الذي بدا في وجوه الجالسين من هذا الكلام الذي كانوا لا يفهمون شيئاً منه التفت الى الكاتب وقال . رويدك ياصديقي فاننا لا نطلب كل هذا . وذلك لسببين . الاول انّ معدنا الادبية ضعيفة لا تهضم الا الغذاء الخفيف . والثاني ان نفوسنا لا تطلب الا ما كان متعلقاً بها من المواضيع كالفلسفة الادبية والدينية التي هي غذاء النفس البشرية . ولذلك ترى اكثر القراء لا يهتمون بشيء من العلوم الطبيعية كالجيولوجيا والطب والهندسة والفسيولوجيا وما اشبه . وذلك لان هذه العلوم لا تخاطب النفس فلا تحتاج النفس اليها الا في حين الحاجة اليها . فما الفائدة اذاً من ضياع الوقت في الكلام عنها . وبما انكم انتم الاصحاء قد ذكرتم حاجاتكم فاسمحوا لمريض ان يذكر حاجاته ايضاً

« اننا نرى الاصحاء يؤلفون ويكتبون دائماً للاصحاء . افلا نجد مريضاً يكتب ويؤلف مرةً للمرضى . فان ذلك صار امراً ضرورياً في زمن كهذا الزمن الذي يموت فيه في بلاد كفرنسا وحدها ١٥٠ الف نفس في كل عام بعلة واحدة . وما ذلك الا من نقمات هذه المدنية الهائلة التي تزيد الضعفاء شقاء في هذه الحياة . ولكن أليس من واجبات الكتّاب ان يزيلوا بنعمة المطالعة شيئاً من هذه النقمة . لقد مضت عليّ ستة اشهر وانا

طريح الفراش بداء عياء · فصغرت نفسي وكرهت الحياة وتمنيت الموت · ولما كنت اطلب كتاباً للمطالعة كنت لا اجد شيئاً ترضاه نفسي لان كل ما كان يقع في يدي من الكتب والروايات كان يثير في نفسي جرثومة الحياة ويحبب اليّ دار البقاء التي كرهتها والتي انا عالم بانني ساخرج منها · فشعرت حينئذ بالحاجة الى كتاب يسمونه « كتاب المرضى او كتاب الحزانى » · كتاب توصف فيه الدنيا بصفاتها الحقيقية من الفناء والغرور والباطل ويوصف به الموت بصفاته الحقيقية من الراحة الابدية والسكون الدائم والخلاص من هذا القفص الارضي · ويضمّ الى هذا الكتاب كثير من حوادث الحزن والنكبات في العالم حتى اذا وقف عليه المريض وجد املاً في الشفاء من جهة وتعزية عن مصابه من جهة اخرى واذا طالعه الحزانى والثاكلات والذين فقدوا الاحباء والاعزاء وجدوا فيه ما يفرّج كربهم من التاسي بمصائب غيرهم بدلاً من ان يظنوا ما يظنه كل حزين في اشد اوقات حزنه من ان الدنيا كلها لاهية بافراحها ومسراتها وليس فيها احد حزيناً غيره · فمن يا ترى يكتب هذا الكتاب فيعزي به القلوب القريحة والنفوس الجريحة · انني اهبكم كل الكتب التي ذكرتموها بهذا الكتاب وحده »

﴿ مشروع الجامعة ﴾ نقول · فلما جالت في خاطرنا هذه الآراء المختلفة ذكرنا مشروعاً قديماً حفظناه في فكرنا منذ انشاء الجامعة الى يوم توسيع ادارتها وزيادة آلاتها وعددها · ومؤدى هذا المشروع نقل كتب ضرورية يجب نقلها الى اللغة العربية فبعد وقوفنا على الآراء التي تقدمت عزمنا على انفاذ هذا المشروع ابتداء من هذا الجزء

وبناء على ذلك فان كل جزء من اجزاء الجامعة سيحتوي بعد الآن رواية من الروايات الفلسفية والادبية او كتاباً من الكتب السامية التي يضعها مؤلفو الافرنج في اسمى الدرجات · وقد تكون هذه الرواية او هذا الكتاب في ٣٠٠ او ٤٠٠ صفحة فنلخصها كلها في ٣٠ او ٤٠ صفحة تلخيصاً يُبقي فيها كل فوائدها وجميع اغراض المؤلف ومواضيعه كما اعتاد القراء ان يروا ذلك في اسلوب الجامعة · وبذلك نستطيع ان ننقل الى اللغة العربية في كل عام ١٢ كتاباً كان يجب ان تُنقل اليها منذ ازمان · ولا يخفى ما في ذلك من التعب والعناء لان مطالعة كتاب وتلخيص صفحاته الكثيرة بعدّة صفحات عمل شاق لا يعرف قدره الا كل من عاناه · ولكن كل عناء يهون علينا في سبيل خدمة قراء هذه اللغة الكريمة والفائدة التي نرجو حصولها من هذا المشروع

ومما يسرّنا خاصةً ان الكتب التي سننشرها على هذا المنوال ستحقق اماني السيدة

والام والمعلم والمريض الذين تقدمت الاشارة الى آرائهم في صدر هذا الفصل . فالسيدة تجد بعد الآن كتاباً جديداً يلهيها عن اللعب . والام تستطيع ان تضع بين يدي ابنتها العزيزة كتاباً جديداً مفيداً دون ان يعروها الخوف منه على آدابها واخلاقها لانه يكون مصدراً للآداب والاخلاق . والمعلمون والمعلمات سيقولون لتلامذتهم احفظوا هذه الكتب في اثمن مكان عندكم اي في اذهانكم . والمريض يقرأه فتسكن آلام نفسه ويهدأ اضطرابها و يبتسم للموت بعد خوفه منه

﴿ ابتداء المشروع ﴾ واذا كان القارئ والقارئة في ريب من ذلك فليطالعا الرواية الادبية الفلسفية الطبيعية التي نشرناها في ذيل هذا الجزء وجعلناها ابتداء هذا المشروع وهي رواية « بولس وفرجيني » . ولا ريب ان القراء يذكرون اننا وعدناهم في مقدمة « الكوخ الهندي » منذ سنة بنقل هذه الرواية الى اللغة العربية لانها اشهر واجمل رواية ادبية يجب ان تُلقى بين ايدي الناس . وهي افضل كتاب كتبه مؤلفها « برناردين دي سان بيير » بل هي افضل كتاب ادبي كُتب في عصره . وقد قال شارحو كتبه ان هذه الرواية وضعت برناردين في درجة هوميروس وفرجيل وتاسيت فصار بها خالداً مثلهم . ولما نُشرت هذه الرواية في باريز (عام ١٧٨٩) قام لها عالم الادب وقعد وما قرأها احد من الجنسين الا اذرف لها دموعاً سخينة ولم يولد غلام في ذلك العام الا وسمي « بولس » ولا ابنة الا وسميت « فرجيني » . اما ناشرو الكتب فانهم زوروا طبعتها ٣٠٠ مرة اي انهم طبعوها ٣٠٠ مرة من غير اذن المؤلف ليستطيعوا اجابة الجمهور الذي كان يطلبها من كل صوب . فعسى ان يكون لها في اللغة العربية شيء من الاقبال الذي كان لها في لغتها لاننا بذلنا الجهد لجعلها — كتابةً وطبعاً وورقاً وصوراً — مساوية للنسخة الاصلية

﴿ فائدته ﴾ وقد اقدمنا على هذا المشروع ولا غرض لنا سوى نشر مبادئ (الجمال . والخير . والحق .) في النفوس وهي الالفاظ الثلاثة التي جعلتها الفلسفة عمادها واكبر اغراضها . بل ليست هذه الكلمات الفاظاً انما هي ينابيع تفيض خيراً وصلاحاً للبشر . فهنالك ينبوع للجمال يشعر الواقف عليه بجمال وسناء في باطنه تهتز لها النفس من التاثر والانفعال (كوصف بولس وفرجيني وحديثهما في الصفحة ١٧ و ١٨) وهنالك ينبوع للخير يشعر الواقف عليه بعظمة الخير والصلاح ولذتهما اذا كان من اهل الخير والصلاح ويشعر بصغر نفسه وحقارتها اذا لم يكن من اهلهما (كتيه فرجيني في الحرش لصنع الخير و رفضها خلع ملابسها في الختام) وهنالك نبع للحق تجري منه الفلسفة العذبة التي تعزّي الانسان في

هذه الحياة وتريه اباطيلها وزخارفها اباطيل وزخارف كما هي في الحقيقة لا عظائم وكبائر كما يصورها الاجتماع للذهن وانه لا عظمة غير العظمة الادبية (كفلسفة المؤلف في الانفراد في الصفحة ٣٠ وحديث بين شيخ وفتى في الصفحة ٣٢) -- هذه هي ينابيع الفائدة الحقيقية في المطالعة الحقيقية . وكل كتاب لا يشعر مطالعه بجمال وسناء داخلي في نفسه . ولا يرى انه صار بعد مطالعته افضل واميل الى الخير والصلاح منه قبل مطالعته . ولا يحسُّ بانه عرف به شيئاً من الحقائق الازلية الكبرى التي تحكم العالم فان ذلك الكتاب لا تساوي قيمته قيمة الحبر والورق اللذين طُبع بهما. ولقد كتب الفيلسوف فيكتور كوزين استاذ الفيلسوف جول سيمون كتاباً بناه على فلسفة افلاطون وعنوانه هذه الكلمات الثلاث (١) وربما لخصنا هذا الكتاب في بعض الاجزاء القادمة

ورغبةً في الاحاطة بوصف هذه الينابيع الثلاثة التي تفيض الخير لمحبي المطالعة يكفي ان ننقل هنا ما قاله مؤلف « بولس وفرجيني » في الصفحة ٣٨ عن كتب الادب والفلسفة والحكمة . واليك نصه

« ان الآداب يا بني عون الهي وهي اشعة من الحكمة الرائعة التي تحكم العالم (يعني بالآداب كتب الادب والفلسفة والحكمة) والانسان لم يتعلّم استنزالها الى الارض الا بوحي او شبه وحي سماوي . وهي شبيهة باشعة الشمس من حيث انها تنير وتسرّ وتبث الحرارة في النفس . وحرارتها حرارة الهية . ومن خواصها انها تسكّن الشهوات وتكبح جماح الرذائل وتهيء النفس لقبول الفضيلة بما تبسطه امامها من سير افاضل الناس الذين تذكر حوادثهم . فكانها طائفة من بنات السماء ينزلن الى الارض ليطردن هموم الجنس البشري ويسلينه في متاعبه . واذا نظرتَ الى اعاظم الكتاب الذين نبغوا في العالم وجدتَ انهم لم ينبغوا الا حين الحاجة اليهم والى مبادئهم وان الزمن الذي نبغوا فيه كان اشد الازمان على مواطنيهم . فكانهم يُرسلون خاصة لانارة بني جنسهم وتبديد همومهم . فاقراء يابني اقراء وطالع فان الحكماء الذين كتبوا الكتب قبلنا انما هم مسافرون تقدمونا في طريق المصائب وهم يمدون بكتبهم ايديهم الينا لمساعدتنا في طريقنا حين يكون جميع الناس قد تركونا وتخلوا عنا »

﴿ الخاتمة ﴾ هذا ما راينا ذكره الآن عن هذا المشروع . وربما وسعنا دائرته

---

(١) الجمال والخير والحق

في المستقبل توسيعاً يتجاوز كل حدّ اذا راينا اننا اصبنا به الغرض المقصود . والله نسأل ان يلهمنا الصواب وياخذ بيدنا لاتمامه اي لاخراج ما في نيتنا اخراجه الى اللغة العربية من الكتب التي هي ينابيع « الجمال والخير والحق » لجمهور القراء في الشرق .

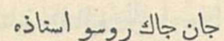
اما ما نرجوه من الجزاء على هذه الخدمة فقد نلناه بحمد الله ومساعدة القراء وهو الاقبال على كل ما تُصدره الجامعة اقبالاً ينسينا كل تعب وعناء . هذا كل ما يُرجى في الشرق اليوم ومن يطلب الآن اكثر من ذلك فانه يدلّ على انه جاهل مجرى النواميس الطبيعية

هذا ولنا في الختام رجاء واحد الى حضرات القراء . وهو اننا نذكر اننا منذ سنوات لما ادخلنا رواية « بولس وفرجيني » التي جعلناها ابتداء هذا المشروع الى احدى المدن السورية لم تُسمَّ فيها باسم فرجيني غير طفلة واحدة . وقد جاءت هذه الطفلة نبيهة وان كانت اكتسبت النباهة من اهلها لا من اسمها . فالجامعة يسرها الآن بعد نشرها هذه الرواية ان تعلم من قرائها عدد الاطفال الذين يُسمون بعد الآن في انحائهم « بولس وفرجيني » اقتداء باهل باريز حين ظهور هذه الرواية ..

﴿ ترجمة برناردين مؤلف الحلقة الاولى من المشروع ﴾







برناردين دي سان بيير — جان جاك روسو استاذه

ولقد نشرنا تفصيل هذا المشروع في باب « المشاهير » لندمج فيه ترجمة الحكيم الاول الذي جعلنا مبادئه مفتتح هذا المشروع وهو برناردين دي سان بيير الفيلسوف الذي مبادئه عظيمة كالطبيعة التي يصفها والذي امتاز عن كتّاب فرنسا بفلسفة عذبة تسلي الانسان وتعزيه ومبادىء سلمية تجعله يكره كل شقاق ونزاع وآداب نقية من كل شائبة وآراء في الطبيعة تحببها الى جميع الناس . واليك خلاصة ترجمته فانه يجب ان لا تخلو الجامعة منها خصوصاً في الجزء الذي نشرت فيه اهم كتبه

ولد برناردين في الهافر (فرنسا) في عام ١٧٣٧ وتوفي في اراني في عام ١٨١٤ . وكان ابوه مديراً لشركات مركبات في الهافر فنشاء برناردين في الفقر وتلقى دروسه الابتدائية

في مدرسة للآباء اليسوعيين في كايين وفي مدرسة اخرى في روين • وقد اكثر في صغره من مطالعة كتاب روبنصن كروزي وكتاب سير القديسين وسافر الى المرتنيك وكان كثير الجلوس على شاطئ البحر والتامل فيه وساح سياحات كثيرة مع راهب يدعى « الاخ بولس » فكل هذه الشؤون غرست فيه ميلاً الى الطبيعة ونفوراً عن الناس وحباً شديداً للرحلات البعيدة • فقام في نفسه ان يزين لحكومة روسيا انشاء مستعمرات في شواطئ بحيرة « ارال » فسافر الى بطرسبرج فعرف فيها المارشال دي مونيخ والجنرال بوسكه والمسيو دي فيلبوى • فمال اليه المرشال واصطنعه • اما الجنرال بوسكه فانه « قدم له يد ابنة اخته » اي اقترح عليه الاقتران بها فاعتذر برناردين لانه كان فقيراً • واما المسيو فيلبوى فانه سعى فجعله ضابطاً في الجيش الروسي وقربه من الامبراطورة كاترين الثانية فكان اقرب المقربين اليها فيما قالوا لانه كان صبوح الوجه لطيف المنظر كما تدل عليه رقة كتاباته وبعضهم زعم انه صار عشيقها • ثم ارسلوه بمهمة الى فينلنده ولما عاد منها ارسلوه الى بولونيا ولكنه لم يلبث ان سئم الشؤون السياسية السرية التي كان يمارسها فقفل راجعاً الى وطنه • فعرض عليه فردريك الكبير ملك بروسيا رتبة ضابط في الجيش البروسي في عودته فابى برناردين ذلك وعاد الى باريز فاصطنعه المسيو دي برتويل وارسله الى « جزيرة دي فرنس » وهي احدى المستعمرات الفرنسوية وفيها جعل المؤلف حوادث « بولس وفرجيني » • فبقي في المستعمرة ضابطاً ومهندساً وهو يبعث من حين الى حين رسائل الشكوى الى المسيو دي برتويل حتى سئم منه فتخلى عنه • وبعد مدة عاد الى باريز فقيراً كما ذهب منها وقد سئم الاستخدام في الحكومة وعزم على « ان يعيش من ثمار بستانه » كما قال اي من شق قلمه • فعكف على الكتابة والتاليف ومنذ هذا الحين دخل في الطريق المستقيمة التي خُلق لسلوكها دون سواها • فالف برناردين كتباً كثيرة منها سياحة الى (جزيرة دي فرنس) • وسياحة الى راس الرجاء (الكاب) • واركاديا • ودروس طبيعية وهي اقسام • والطبيعة والادب • وسياحة في سيليزيا • وموت سقراط • وكلام عن الجرائد • وكلام عن جان جاك روسو • وقصص السفر • والكوخ الهندي • وغيرها من الكتب والاسفار المفيدة • واهمها كلها « بولس وفرجيني التي نحن الآن في صددها

ولما انتشر بين الناس اول هذه الكتب (وهو سياحة في جزيرة دي فرنس) اقبل القراء من كل جانب عليه وشعر الخاصة والعامة ان هذا الكاتب قادم عليهم باسلوب جديد ولهجة جديدة • فقد كانت عبارته رقيقة تكاد تذوب طلاوة وحلاوة وكان له في وصف

المناظر الطبيعية والعواطف الادبية والدينية اسلوب لم يظهر على قلم غير قلمه . فانهالت على الكاتب كلمات التنشيط والثناء وسعى له رئيس اساقفة اكس فمنحته الحكومة راتباً قدره الف فرنك . وعينت له احدى الجرائد ٦٠٠ فرنك والدوق دورليان ٨٠٠ فرنك وعين له احد اقلام الحكومة الف فرنك ايضاً وربح من كتبه لاول مرة ٦ الاف فرنك فاكتفى برناردين الحاجة بهذا المال واستطاع التفرغ للتاليف والكتابة فانار بقلمه سماء فرنسا وقتاً طويلاً

ولما بلغ برناردين هذا الشاو كان قد وصل الى قمة جبله وكان اكتب كتاب زمانه بعد جان جاك روسو الذي كان استاذه . اما في الفلسفة الادبية فقد كان برناردين مقدماً عليه عند كثيرين . وقد تزوج برناردين مرتين واخذ في كل مرة دوطة طائلة مكنته من ابتياع منزل بعيد عن الناس والمعيشة فيه بين الازهار والاشجار والدفاتر والمحابر براحة وسلام كما عاش صاحب الكوخ الهندي وبولس وفرجيني . وقد توفيت زوجته الاولى وهي مستاءة من هذه المعيشة اما زوجته الثانية فان الانفراد كان منطبقاً على ذوقها فعاشا معاً سعيدين مستترين . ولما توفي برناردين اقترنت زوجته بالكاتب ايمه مارتين المشهور فتولى هذا الكاتب طبع كتب برناردين . وقد طالعنا من كتب « ايمه مارتين » كتاب « تربية امهات العائلة » فرايناه فيه يكثر من الاستشهاد ببرناردين ويلقبه بالفاضل مراراً وما كنا ندري يومئذ انه زوج ارملته

وقد وضعنا في هذا الفصل رسم برناردين بجانب رسم استاذه جان جاك روسو . ويحسن بنا هنا ان نختتم الكلام بقصة صغيرة عنهما . وتفصيل ذلك ان برناردين وروسو كانا في ذات يوم يتنزهان تحت الاشجار التي كانا يحبانها فالتفت برناردين الى استاذه وساله : هل انت « سان برو » يامسيو روسو . وقد اراد برناردين بذلك ان يعلم هل ان روسو قد وصف نفسه في « رسائل هيلو ييز الجديدة » التي بطلها رجل يُدعى « سان برو » فاجابه روسو « لستُ « سان برو » تماماً ولكنني كنت اود ان اكونه » — وكل من طالع كلام برناردين في الصفحة ٣٠ من « بولس وفرجيني » جاز له ان يقول عنه كما قال روسو عن نفسه : ليس برناردين بالشيخ الذي حكى قصته هناك ولكنه كان يود ان يكونه . وانما وصف في ذلك الكلام المعيشة التي كانت تصبو جوارحه اليها والتي ذاق لذتها في آخر عمره كما رايتَ في ترجمة حياته . وبذلك وجدت فضيلته ما كانت تستحقه من جزاء الراحة والهدوء والسلام في هذا العالم

المقالات

ننشر في هذا الباب كل ما تهمّ مطالعته من المقالات الفلسفية والعلمية والادبية والتاريخية والعمرانية ما لا يدخل في باقي ابواب المجلة ويكون جامعاً لطلاوة الجديد وفوائد المفيد

تاريخ الرسل بعد المسيح

﴿ ملخص مما كتبه الفيلسوف رنان ﴾

تابع ماقبله

التعاليم في النشأة الاولى . (سنة ٣٥ للميلاد المسيحي)

اما تعليم الرسل في النشأة الاولى فقد كان محصورًا في دائرة صغيرة لان السيد اجتنب في تعاليمه كل بحث في ما وراء الطبيعة . وكان في تعليمه عقيدة واحدة وهي بنوته لله ومهمة الهية جاء الى الارض من اجلها . وبعد صلبه كان جميع تباعه وتلامذته يعتقدون بقرب عودته اليهم في مجد عظيم و ينتظرون هذه العودة . وكان شعارهم يومئذ اي العلامة التي يعرفون بها بعضهم بعضاً قولهم « ماران اثا » ومعناها ان السيد آتٍ (١) ذلك انهم كانوا يذكرون قولاً له بقي في اذهانهم وهو « ان البشارة لا تصل الى جميع مدن اسرائيل الا و ياتي ابن الانسان » وكان اعتقادهم في السيد انه « انسان نبي مقتدر في الفعل والقول (٢) وقد ارسله الله بمهمة خاصة للانسانية (٣) ونفخ فيه روحه وبث فيه قوته . وقد صرف حياته في الارض في صنع الخير وشفاء الذين كانوا مسكناً للشياطين . وقد كان قادرًا على ذلك لان الله كان معه (٤) . فهو اذًا ابن الله اي انساناً مرسَلاً

---

١) كورنثوس ص ١٦ ع ٢٢ ٢) انجيل لوقاص ٢٤ ع ١٩

٣) اعمال الرسل ص ٢ ع ٢٢ ٤) اعمال الرسل ص ١٠ ع ٣٨

من قِبل الله ونائبه في الارض

وبما ان السيد قد اجتنب في حياته تعليمهم شيئاً من الطقوس او الطرق المادية التي تتخذها اصحاب الاديان المتقدمة للعبادة فلذلك كانت الديانة الجديدة يومئذ خالية من الحفلات والطقوس . ولم يكن عندهم كاهن بل كان اقدمهم عهداً في المذهب يتقدم في الصلاة . ذلك انه لا كاهن غير يسوع . و بعبارة اخرى ان كل واحد منهم كان كاهن نفسه و يسوع راس الجميع . وكان الصوم عندهم من الاعمال الحسنة والعماد علامة دخول الانسان في مذهبهم . غير ان العماد لم يكن كافياً بل كان يجب ايضاً مسح الداخل الجديد بالروح القدس . وطريقة ذلك ان يصلي الرسل على راس الطالب و يضعوا ايديهم عليه للبركة

وكانت هذه العادة عادة وضع اليد من العادات التي الفها يسوع وكان يحبها ولذلك صارت بعده عملاً مقدساً بل اقدس الاعمال . وكان من خواصها في اعتقاد الرسل انها تعطي الذي توضع اليد عليه نعمة الروح القدس فيصير قادرًا على صنع العجائب والنبوءة والنطق باللغات المختلفة فضلاً عن انارة نفسه واحيائها . وهو ما كانوا يسمونه العماد الروحي

وعلى ذلك فقد كان المذهب المسيحي يومئذ في بساطة تامة . واما عادة العماد فليست بفلسطينية الاصل بل انها كلدانية ولا يزال الصابئة يمارسونها في قسم من بلاد الكلدان الى هذا اليوم . وكان ايضاً في ديانة الفرس القديمة شيء من ذلك

نقطة فلسفية مهمة في النشاة الاولى

وكانت الطائفة في ذلك الحين قليلة العدد وحديثة النشأة ولذلك لم تهتم في بدء الامر بمسالة الدفن والموت . ولكن حينما حدثت فيها الوفاة الاولى حدث فيها شيء من الاضطراب . ذلك لان الجميع اخذوا يتساءلون هل ان الذين يتوفاهم الله اليه قبل عودة ابن الانسان يكونون اقل حظاً من الذين يبقون في قيد الحياة لمشاهدة مجده حين عودته . ثم عادوا فقرروا ان الوقت الذي يمرّ بين موت الانسان و بعثه في اليوم الاخير يكون عبارة عن فراغ في نفس الانسان وضميره . ومن ذلك يظهر ان ما جاء في الفلسفة اليونانية خصوصاً في « فيدون » عن نفس الانسان بعد الموت لم يكن قد دخل يومئذ الى المذهب المسيحي . فان هذه الفلسفة مقتضاها ان النفس موجودة قبل الموت و بعده وان الموت خير للانسان بل هو الحالة الطبيعية الفلسفية الحقيقية لان النفس تتجرد فيه من كل مادة تعيقها . هذه هي خلاصة بعض المذاهب اليونانية . و يظهر ان المسيحيين في صدر نشأتهم كانوا

يعتقدون اعتقاداً يخالفها لانه يظهر انهم كانوا لا يفهمون امكان وجود الانسان من غير جسده · وقد دام هذا الاعتقاد وقتاً طويلاً حتى دخلت الفلسفة اليونانية الى الكنيسة وامتزجت بمذهبها في البعث (القيامة) اما الآن « اي في السنة الخامسة والثلاثين للميلاد المسيحي » فقد كانت هذه الفلسفة مجهولة

واما طريقة الدفن فقد كانت يومئذ على الارجح كطريقة اليهود · ولم يكونوا يهتمون بهذه الحادثة كثيراً ولا كانوا ينقشون اسم الميت على الضريح لان الميت لا يقيم في حفرته الصخرية غير مدة وجيزة لقرب يوم القيامة (البعث) · واما كون القيامة تشمل الصالحين والاشرار معاً او الصالحين وحدهم فذلك امر لم يهتموا بالاتفاق عليه

زهرة النحلة المسيحية وطريقة الصلاة الاولى

وقد كان من اخص صفات المذهب الجديد امران : الاول ظهور النبوءة فيه بعد ان كانت قد بطلت في اسرائيل ولذلك قام في هذا الزمن عدة انبياء ونبيات كما كان في العهد القديم (زمن التوراة) والثاني ظهور مرنمي الزبور (المزامير) · وكانت هذه النبوءات وهذه المطالعة في الزبور اموراً مالوفة ولكنها امتازت بما كان يتخللها من روح التقوي والحب والمسالمة · فكانها صدى نغمات عود اسرائيل القديم · وعلى ذلك فقد كان كتاب الزبور بمثابة الزهرة الجميلة التي جنت من كاسها النحلة المسيحية اوّل ما جنته من العسل · واما اسفار التوراة الخمسة الاولى فقلما كان ابناء المذهب الجديد يطالعونها في ذلك الزمان

واما طريقة الترنيم في هذا النشيد الجديد فربما كانت الطريقة التي لا يزال يجري عليها اليوم اليونان والمارونيون خصوصاً ومسيحيو الشرق عموماً · وهي عبارة عن اصوات ممدودة مقرونة بزفرات وليس فيها قاعدة ظاهرة · فهي اشبه باصوات متتالية تخرج سريعة مقرونة بضرب من التصويت يخرج من الانف منها بتوقيع موسيقي · وكانوا ينشدون هذا النشيد وهم وقوف باحترام بعيون شاخصة وجباه متجعدة تدل على الاهتمام والجهد · وكانوا يلفظون في ختام الصلاة بصوت مطرب اي مرتجف كلمة « آمين » ويريدون بها اشتراك الجماعة في صلاة المصلي كما كانت العادة يومئذ عند اليهود · وربما كان اليهود يعتقدون بان لهذه الكلمة تاثيراً سرياً مفيداً ولذلك كانوا يلفظونها بتانق وتفخيم في الصوت · ولسنا نعلم شيئاً مما اذا كان هذا النشيد يومئذ مقروناً بالتوقيع على آلات موسيقية ام لا ولكن كيفما كانت الحالة فانه دليل على ما كان في النفوس من السرور والفرح · ولذلك جاء

في اقوالهم : اذا كنت حزيناً فصلِّ واذا كنت مسروراً فانشد

هذا ومما لا يحتاج الى بيان ان الطائفة لم تدوّن يومئذ حوادثها لاستغنائها عن الكتابة . انما قال السيد انه يعود قبل فناء ذلك الجيل . اما كتاب « اعمال الرسل » فانه لم يُكتب الا في سنة ٨٠ بعد الميلاد المسيحي اي بعد انقضاء نحو نصف قرن على صلب المسيح

انتشار المذهب الجديد

وكانت يومئذ الطائفة المسيحية الاولى عبارة عن جماعة من اهل الجليل . اما الذين مالوا اليها في حياة السيد من سكان اورشليم كلعازر ومرثا ومريم من بيت عنيا و يوسف الذي من الرامه فانهم تفرقوا ولم يعد يظهر لهم اثر . ولم يبقَ احد ملتفاً حول التلامذة الاثنى عشر غير الجليليين . فاخذ التلامذة في الوعظ والتعليم . وكانوا يعظون في رواق سليمان وكان وعظهم مقصوراً على اقامة الدليل من نصوص التوراة على ان يسوع الناصري هو المسيح . وكانت حججهم ضعيفة ولكن كل اقوال اليهود في ذلك العصر كانت كذلك . ولا نستثني من هذا الضعف اقوال علماء اليهود انفسهم التي نُشرت في المشنا . اما ما ذُكر من ان التلامذة كانوا في ذلك الحين يجمعون الشعب في الساحات العمومية و يخطبون فيهم فهو مردود بانّ الذين صلبوا السيد لا ياذنون لتلامذته بعقد حفلات كتلك الحفلات

و بناء على ذلك نقول ان التلامذة لم يستميلوا الناس اليهم بما كانوا يلقونه من الخطب الضعيفة ولا ما كانوا يصنعونه من العجائب البسيطة وانما كانت واسطة الاستمالة الحقيقية حديث هوءلاء الرجال الصالحين الاتقياء واقتناعهم الشديد بما كانوا يدعون الناس اليه فضلاً عن تقواهم وحبهم للخير والمسالمة . فكأنّ كلام السيد ابقى في حديثهم صدى موءثراً . ولا ريب ان اشتراكهم جميعاً في المعيشة قد زاد هذا التاثير ايضاً لان دارهم كانت عبارة عن ملجاء يلجاء اليه الفقراء والمساكين

ستاتي البقية

بلدان فلسطينية يصفها فلسطيني

لحضرة الفاضل نجيب افندي نصار في طبرية

بينما كنت اتتبع في الجامعة تاريخ المسيح للفيلسوف رنان عثرتُ على اسماء قديمة لبعض البلدان في فلسطين ولئلا تفوت معرفتها الذين ليس لهم المام بتواريخها رغبت في ذكر اسمائها المتعارفة وبيان مواقعها وشذرات من تواريخها مع بيان مواقع المدن الخمس التي صرف فيها السيد معظم عمره ومارس فيها اعماله وتعاليمه ايضاحاً لما ذكره رنان . فاقول

﴿ مقاطعة غولونيتيس ﴾ وورد في الجزء الثالث للسنة الثالثة (صفحة ١٦٥) « اسم يهوذا الغولونيتي او الجليلي » . وهو الذي اقدم على عمل ديني حماسي واعدمه الرومانيون. فالغولونيتي نسبة الى غولونيتس احدى مقاطعات حوران الخمس في ايام الرومانيين وهي هذه : « ايتوريا » و« غولونيتيس » وهي واقعة شرقي بحيرة طبرية ونهر الاردن وتدعي اليوم « الجولان » والى الشرق منها « باتانيا » واسمها اليوم جبل عجلون والى الشمال الشرقي من هذه « تراخونيتيس » و« اورانيتيس » وتدعى الآن حوران . ومن هذا يظهر ان غولونيتيس التي اتخذت اسمها من مدينة جولان القديمة التي كانت من نصيب سبط منسى (يشوع ص ٢٠ ع ٨) هي غير الجليل الواقعة الى الغرب من نهر الاردن وبحيرة طبريا

﴿ مقاطعة بيريا ﴾ وورد في الصفحة ١٦٤ ان هيرودس انتيباس كان والياً على الجليل وبيريا . فبيريا هي البلاد الواقعة شرقي الاردن وبحر لوط بين الجولان شمالاً ووادي ارنون المدعو اليوم وادي الموجب جنوباً . وكان هذا الوادي العميق حدّاً طبيعياً يفصل بين مملكتي مواب من الجنوب وعمون من الشمال . ومن مدن مقاطعة بيريا الشهيرة جرش الممتازة بابنيتها القديمة العظيمة وبينها الملاعب الفسيحة والهياكل العظيمة والقصور الشائقة والسوق الطويلة الممتدة بين صفوف الاعمدة الضخمة المنحوتة والمنقوشة كراسيها واغطيتها نقوشاً متقنة جميلة للغاية على الطراز الكورنثي والايوني . ومن مدنها ايضاً مدينة عمان التي كانت تُدعى ربة عمون وهي عاصمة مملكة العمونيين اعاد ابناءها بطليموس الثاني الملقب فيلادلفوس ودعاها فيلادلفيا نسبةً اليه . ويسكنها الآن نحو الف وخمسمائة عائلة من مهاجري الجراكسة . وفي طرف مقاطعة بيريا الجنوبي الى الشرق من بحيرة

لوط قلعة « ماكيروس » التي ذكرها رنان واسمها الحالي (مُكاور) بناها هيرودس الكبير وحصنها انتيباس على الحدود بينه وبين حميه ملك العرب وفيها سُجن يوحنا المعمدان وقُطع راسه · واليها بعث انتيباس امراته لتذهب من هناك الى ابيها

﴿ الولاية العربية في عهد الرومانيين ﴾ اما بتره التي جاء ذكرها في الصفحة ١٦٨ من الجزء الثالث فقد كانت يوماً عاصمة بلاد العربية ومركز تجارتها وتعرف الآن باسم (وادي موسى) ولقد ذكرها ياقوت المؤرخ بهذا الاسم وسميت كذلك لانهم يعتقدون ان موسى ضرب صخرها بعصاه فانفجرت منها ينابيع المياه فشرب الاسرائيليون · وهي واقعة على مسافة نحو خمسين ميلاً الى جنوبي البحر الميت في وادٍ صخري طوله ثلاثة ارباع الميل وعرضه خمسمائة يارد من جهة الشمال ونصف ذلك من الجنوب · والمدينة تشغل كل هذه المساحة · ولم يزل يُرى من خراباتها بقايا قبة نصر وآثار قصور وكنيسة وهيكل وعدة مدافن جميلة منقورة في الصخور بعضها يشابه المدافن اليهودية · واغرب ما يوجد بين هذه الآثار الملعب الكبير البالغ قطره تسعة وثلاثين ياردًا والحاوي ثلاثة وثلاثين صنفاً من المقاعد كافية لجلوس اربعة الاف من المتفرجين · وفي اعلى هذه الصفوف غرف مفتوحة بشكل قناطر وجميع ذلك منقور في صخر واحد صلب ومنحوت نحتاً دقيقاً مما يدل على ما كان لوادي موسى من الاهمية والحضارة · واما الآن فلم يبقَ فيه شيء سوى قبائل البدو الضاربة اطنابها حوله

﴿ المدن الخمس التي عاش السيد فيها ﴾ اما المدن الخمس التي قال رنان انها كانت مجهولة في ايامه ما عدا المجدل الواقعة على شاطىء البحيرة الغربي على مسافة ٣ اميال الى الشمال من طبريا فقد صارت معلومة اليوم · اما دلمانوثه فهي واقعة في منتصف الطريق بين طبريا والمجدل بقرب ينابيع مياه حارة قليلاً وقد اكتشفوا هناك بعض آثار ابنية · ويؤيد كون دلمانوثه قريبة من المجدل قول الانجيلي (مرقص) ص ٨ ع ١٠) ان السيد جاء الى نواحي دلمانوثه ومتى (ص ١٥ ع ٣٩) انه جاء الى تخوم مجدل

واما كفر ناحوم فيظن المؤرخون انها كانت في مكان تلحوم الحالية ولذلك اشترى الاباء الفرنسيسكانيون اراضيها وبنوا عليها ديرًا صغيرًا · ويؤسس الكتبة براهينهم بشان موضعها هذا على المشابهة بين الاسمين (كفر ناحوم وتلحوم) مع كون هذه المشابهة غير كافية لان يُسند اليها الكتبة الثقات اقوالهم ما لم يكن اسم تلحوم مستخرجاً من تل ناحوم · وعلى فرض ذلك فمن الضرورة ان نكون قادرين على تعقب تاريخ هذا الاشتقاق

حتى العصور الاولى بعد المسيح حالة كوننا لا نستطيع في ذلك ان نتعدى زمن الصليبيين. فان هوءلاء رأوا بعض الخرابات في ذلك المكان و بينها آثار ابنية رومانية فظنوا انها بقايا المجمع الروماني الذي بناه قائد المائة الروماني لليهود وهكذا دعوها بدون تروٍ متبركين كفر ناحوم . وعنهم اخذ العرب اسم تلحوم وتداولوه حتى يومنا هذا . غير اننا نعتقد ان وجود الآثار الرومانية في تلحوم يوءيد رواية يوسيفوس بان انتيباس رفع قرية بيت صيدا الحقيرة وجعلها مدينة بما شيده فيها من الابنية الجميلة و زيادة عدد سكانها ودعاها بعد ذلك بيت صيدا جولياس . ولا ريب في كون ذلك الملك او الوالي لم يقم ابنيته الشائقة بين الاكواخ اليهودية الحقيرة بل بناها على حدة وجعلها مستعمرة رومانية جديدة شرقي القرية القديمة لجهة مصب نهر الاردن ليتمكن السكان من الانتفاع بمياه النهر وانشاء الجنائن والبساتين على ضفافه . وامتدت المستعمرة مع طول المدى الى عبر مصب النهر ولذلك صار مشاهير بعض الكتبة يعتقدون على رغم قول يوسيفوس هذا او على غفل منه بوجود قريتين باسم بيت صيدا الاولى اليهودية والثانية الرومانية اي جولياس حالة كونها واحدة كما ظهر مما تقدم

اما كفر ناحوم الحقيقية فقد اقتادتنا الادلة الى حد الجزم بكونها تل الطابغة المدعو تل العريمه الواقع غربي تلحوم على شاطئ البحيرة الشمالي وعلى راس سهل المجدل اي سهل جنيسارة القديم . وقد ظن الدكتور طمسن صاحب الكتاب الشهير « البلاد والتوراة » ان اسمها اي الطابغة مشتق من الاصل العربي (دباغة) ولذلك قال انها مدبغة كفر ناحوم و يوافقه على قوله كثيرون الى يومنا هذا . حالة كون الطابغة محرفة من « هبتاغون » الينابيع السبعة وهي الينابيع الغزيرة التي اشار اليها يوسيفوس في كفر ناحوم بكونها كانت تسقي القسم العلوي من سهل جنيسارة وتجعله غاية في الخصب . ولم يزل قسم كبير من آثار قناتها منقورًا في صخر صلب يشهد بصحة رواية يوسيفوس الى مئات من الاجيال بعدنا قبل ان تقوى عوامل الطبيعة على درسه . وربما ان رنان لم يشاهد هذه الينابيع ولا قناتها حتى راح يحوم بين عين المدورة وعين التينه اللتين لا يمكن تطبيقهما على رواية يوسيفوس . ولا عجب فان كثيرين من السياح لا يرونها لجهل تراجمتهم اهمية ما يتعلق بها من الحقائق التاريخية

واما الطريق القديمة التي يذكرها رنان بالقرب من تلحوم فهي بعيدة عنها وقريبة من تل العريمه (كفر ناحوم) وهي الطريق القديمة التجارية بين الشام والمدن الشمالية والقدس

والكرك و بلاد العرب ومصر . ولذلك كان الجباة يقيمون في كفر ناحوم لاخذ رسوم البضائع من القوافل التي كانت تمر بتلك الطريق . ولا اظن قول يوسيفوس هذا المؤيد بالبراهين الحسية يقبل الرد . وقد باحثنا بهذا الخصوص عدة من علماء الآثار فوافقونا على راينا الا من كان منهم شديد الاستمساك بالتقاليد فانهم اظهروا اضطرابهم في ذلك ورغبتهم في زيادة الفحص عنه . وقد وعد بعضهم بالكتابة لنا عن نتيجة ابحاثهم ومر على تلك الوعود ازمان دون انجاز — ولقد اكتشفت قرية كورزين ولعل مكتشفها هو الدكتور روبنصن العالم المدقق الذي اكتشف عدة اكتشافات مهمة كانت مجهولة تماماً قبل سياحته في البلاد . وهي تعرف باسم (خربة كرزا) واقعة على مسافة ميلين ونصف الى الشمال من تل العريه (كفر ناحوم) وفيها بئر ماء و بعض خرابات متهدمة حتى اساساتها

واما طبريا فاني ابقي الى فرصة اخرى الخوض في تاريخها القديم والحديث وسبب عدم دخول السيد اليها وعدم ذكرها في ثلاثة من الاناجيل واحوالها الحاضرة وما يمكن ان تصير اليه

﴿ الجامعة ﴾ نشكر جناب الكاتب لاتحافه الجامعة بهذه الرسالة . ولكن لنا عليه عدة اعتراضات . منها ان رنان لم يذكر ان ولاية الجليل هي غولونيتيس ولكنه سمي يهوذا الغولونيتي « بالجليلي » كما كان يسميه معاصروه وكما سماه مؤرخو اليهود انفسهم على سبيل المتابعة . والدليل على ان رنان لم يكن « يجهل » ما ذكره جناب صاحب المقالة من ان غولونيتيس" واقعة شرقي بحيرة طبريا » قوله في الصفحة المذكورة آنفاً السطر ١٢ (احدهما يدعى يهوذا " يريد الغولونيتي » وهو من قرية جماله القائمة في شرقي بحيرة طبريا »

واما قوله ان دلمانوثه « واقعة في منتصف الطريق بين طبريا والمجدل فهو رأي فيه نظر . فان مرقص يقول « وللوقت دخل السفينة مع تلاميذه وجاء الى نواحي دلمانوثه » وذلك يرجح ان دلمانوثه كانت على شاطيء البحيرة . وقد نفى بعضهم بهذا الدليل ما زعمه طمئن من ان دلمانوثه واقعة في مكان يدعى اليوم « دالاميا » او دالاميا وهو على مسافة ساعة ونصف من مفترق الاردن عن البحيرة على شاطيء الاردن نفسه — واما كورزين فان رنان ذكرها في حاشية في كتابه وضربنا نحن صفحاً عنها رغبة في الاختصار . فانه قال في الحاشية ان العلماء بالآثار يضعونها في مكان يُدعى اليوم كورازي او بئر كرازي ولعله « خربة كرزا » التي اشار اليها جناب الكاتب — واما كفر ناحوم فراي المراسل فيها غير

بعيد . ولكننا نخبره بانه اخطأ في تعنيفه رنان لعدم مشاهدته « عين الطابغة » فانه شاهدها وكتب عنها في الصفحة ١٤٥ سبعة اسطرهذه ترجمتها « وعلى مسافة ربع ساعة من هناك عين ماؤُها مالح تُدعى عين الطابغة وهي تنبع من الارض من عدة منابع واسعة على مقربة من البحيرة وتصب فيها . وعلى مسافة ٤٠ دقيقة منهـا بعض اكواخ وخرائب تدعى تل حوم » فمن ذلك يظهر ان عين الطابغة قريبة من تل حوم وحينئذ تكون تل حوم هي « كفرناحوم » التاريخية وعين الطابغة هي الينابيع السبعة التي كانت تسقيها . وقد ذكر رنان هذا الراي في احدى حواشي الكتاب على سبيل الترجيح لا التقرير لانه لا يقرر شيئًا الا اذا كان على يقين منه

الهواء الاصفر في القطر المصري

لحضرة الفاضل الدكتور عارف افندي نحاس احد اطباء محاجر الطور في العام الماضي

في اواسط شهر يوليو ارتجت ارجاء مصر لظهور الهواء الاصفر بغتة في بلدة موشه (الوجه القبلي) و بلوغ اصاباته فيها ٩٥ اصابة في يوم واحد مع ان عدد سكانها لا يتجاوز ثمانية الاف نفس . و بعد وقت وجيز وصل هذا الوباء الى العاصمة فهلعت القلوب واضطربت النفوس واشتد الخوف بالناس حتى اخذوا يتعلقون باذيال الفرار افواجًا افواجًا وهم لا يلوون على شيء . فقام اطباء الصحة حماة الاجسام والارواح يصدون هجماته و يدفعون ضرباته . اما عدد منكوبيه منذ ظهوره لغاية ٢٥ الجاري (اغسطس) فهو في جميع مديريات القطر ٤٢٧٨ اصابة و٣٢٤٤ وفاة واما الذين شفوا منه فلا يتجاوز عددهم ٣٢٢ شخصًا

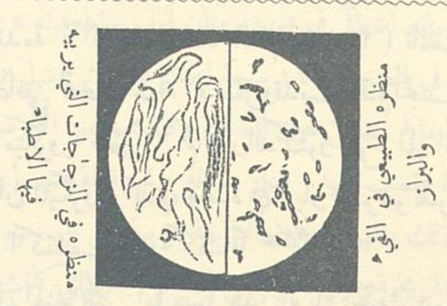
﴿ اكتشاف ميكروبه ﴾ ويحسن بنا هنا ان نقابل هذا الوباء بالهواء الذي حدث في مصر في عام ١٨٣١ . فقد بلغت الوفيات به في ذلك العام ٢٥٠٠ نفس في كل يوم . ولذلك حصد ٥٥ الف نسمة في مدة اربعة اشهر . فتامل . وسبب ذلك ظاهر كالشمس للعيان فقد كان العلم يجهل حقيقة الوباء وكيفية سيره وكانوا يحسبونه هواء يتطاير في الفضاء ولذلك كانوا يحرقون في الفضاء بعض الخرق ملوثة بمواد مضادة للفساد ليلاشوا ذلك الهواء . وهكذا كانوا يصنعون ايضًا في سنة ١٨٨٣ حين عودة الوباء الى القطر وفتكه فيه فتكًا

ذريعاً كالوباء الذي تقدمه . الا انه في هذا العام (١٨٨٣) تالفت لجنة المانية من الدكاترة كوخ وفيشر وغافقي لفحص الهواء الاصفر وقدمت هذه اللجنة الى القطر المصري فاكتشفت لهذا الوباء ميكروباً صغيراً . ثم سار الدكتور كوخ الى الهند وزاد بحثاً وتنقيباً في الوباء هناك فوجد ان الميكروب الذي وجده في ديار مصر هو نفس الميكروب المنتشر في اصقاع الهند . وهكذا اكتشف كوخ اكتشافاً عظيماً

﴿ منشأ الوباء في الهند ﴾ اما منشأ هذا الوباء الخبيث فهو وادي الكنج في بلاد الهند فان الهنود الوثنيين يعتبرون هذا النهر نهراً مقدساً يصب في الجنة كما يقولون ولذلك يلقون فيه جثث امواتهم ملفوفة باوراق النباتات والاشجار . فتطفو هذه الجثث على وجه الماء سابحة صاعدة الى « المكان الابدي » والحقيقة ان النهر حين فيضانه يقذفها على شواطئه مع جميع الاقذار والاوساخ التي تُلقى فيه فتتراكم في الوادي بعضها فوق بعض فيدب اليها الفساد والنتن فتنشأ فيها ميكروبات عديدة منها ميكروب الكوليرا . ولذلك يُعدُّ هذا الوباء « محلياً » في الهند . ومما يساعد الاوبئة على الانتشار هنالك حالة الهواء والاقذار . وقد احصى اوتسلي من سنة ١٨١٧ الى سنة ١٨٤٠ — ٤٤٣ وباء هاجمت تلك البلاد فحصدت منها ١٨ مليون نفس . ولعمري انه لو تالبت الدول جمعاء بمدافعها الجهنمية وعددها الهائلة وقاتلت بعضها بعضاً لما بلغت قتلاها هذا العدد

﴿ انتشاره من الهند الى الخارج ﴾ ويتصل تاريخ اكتشاف هذا الوباء في الهند بتاريخ دخول الاوربيين اليها سنة ١٨١٧ . ثم انتشر في الاقطار منذ عام ١٨٣٠ وكان انتشاره بطريق البر فوفد الى هندستان ومنها الى افغانستان وجنوبي ايران وروسيا ومن هناك دخل اوربا . وفي سنة ١٨٦٥ اخذ ينتشر عن طريق البحر في سفن الملاحة . على ان افتتاح ترعة السويس سهل له سبل الانتشار وهذا ما راع الدول واخاف العالم المتمدن خوفاً عظيماً فعقدت مؤتمراً في فينا سنة ١٨٨٧ للنظر في الوسائل الواجب اتخاذها اتقاء لهذا الوباء . فاشار بعضهم باقامة المحاجر في السويس لصد هجماته ورد غاراته فقام آخرون وفي مقدمتهم بتتكوفر الانكليزي وعارض هذا الراي مكتفياً بما تجريه البلاد من الامور الصحية . فتصدي لهم بروواردل الطبيب الفرنسوي قائلاً : اذا كانت المحاجر لم تمنع انتقال الكوليرا واتخذتم ذلك دليلاً على وجوب الغائها فذلك بمثابة قولكم : بما ان الحصون والقلاع لا تصد هجمات العدو المهاجم فانه يجب هدمها

﴿ ميكروب الوباء ﴾ اما ميكروب الوباء فهو جسم حي صغير جداً لا يُرى بالعين



ميكروب الكوليرا

المجردة وهو بشكل الواو او الضمة ولذلك سموه « واوياً او ضمياً » وهو يتحرك حركات سريعة وهذا الميكروب موجود في براز الموبوء وقيئه وكلما مسَّ هذا البراز والقيء . وهو يعيش زمناً طويلاً فقد اخذ الدكتور كوخ بعد مرور ٨١ يوماً على انقطاع الوباء في مرسيليا قليلاً من ماء البحر في مرفاءها وفحصه فحصاً بكتريولوجياً فوجد الميكروب عائشاً فيه . ومن خواص هذا الميكروب انه يعيش وينمو ويتكاثر في الامتعة والمحلات الرطبة والمياه الراكدة ومياه الشرب . ولكن حركته تقف عند الدرجة العاشرة من الحرارة . وهو يعيش في درجة ١٦ و يزداد فتكاً وتكاثراً في درجة ٣٠ الى ٣٧ وقلما يعيش في درجة ٥٠ ويموت موتاً سريعاً في درجة ٧٥ . وله عدو لدود وخصم عنيد وهو الحوامض فهي له كالسم القاتل . وقد حقق ذلك الدكتور كلين خصم الدكتور كوخ وذلك انه اخذ كاس ماء مملوءة من ميكروبات الكوليرا وعصر فيها حامضاً ثم شربها فلم يضره شيء . على ان حوامض المعدة تهضم الميكروب وتميته اذا كانت بحالة الصحة والانتظام اما اذا حصل عسر هضم او تلبك في المعدة صعبت اماتته لقلة الحوامض فيها . وكثرة المياه في المعدة تسهل له الطرق للعبور الى الامعاء حيث ينمو ويتكاثر فيفرز سموماً قتالة

﴿ اعراضه وطرق العدوى ﴾ اما طرق العدى فمن البراز والقيء لاحتوائها على الميكروب الذي تقدم ذكره . ومنها يتصل الميكروب بما يلامسه و يباشره كالماء والطعام والفاكهة والامتعة الخ .

واما الاعراض فهي تحدث غالباً على ثلاثة ادوار الدور الاول « الطور المنذر » وبيان ذلك ان الانسان يكون في حالة العافية والصحة واذ يفاجئه القيء والاسهال ويكون ذلك في الليل على الغالب فيشعر المصاب بمغص اليم ثم يتزايد الاسهال بدون اوجاع ويكون ذا مواد سائلة صفراء اللون كريهة الرائحة . وقد تمر بضعة ايام على هذه الحالة ثم تنتهي اما

بالشفاء بواسطة العلاج والاعتناء او بالانتقال الى الدور الثاني وهو « الدور الجليدي » ففي هذا الدور تتزايد دفعات الاسهال وتصير ذات مواد مصلية بيضاء كمغلي الارز بدون آلام ثم يبتدئ القيء اصفر اللون او ابيضه فيه كثير من الماء ممزوجاً بمواد مخاطية وغشائية. وقد يزداد عطش المريض ويشعر باحتراق شديد في بطنه ومعدته وجميع جسمه مع ان حرارته تكون حينئذ تحت المعدل

وفي هذه الادوار كلها يمكن الشفاء متى حصل رد فعل . وذلك يتم بارتفاع الحرارة في الجسم واعادة وظائف الاعضاء الى مجراها الطبيعي شيئاً فشيئاً

﴿ الوقاية ﴾ قيل الوقاية خير من العلاج فعليك اذاً الاعتناء بحفظ المعدة سالمة من التلبك وسوء الهضم . فلا تكثر من الطعام . امتنع عن المسكرات . لف معدتك بحزام من صوف . لا تاكل طعاماً الا اذا كان مطبوخاً وخفيفاً على المعدة . لا تتناول من المشروبات سوى قليل من الكونياك الجيد او النبيذ والقهوة والليموناده والكازوزه . امتنع عن اكل اللحوم المقددة والاسماك المملحة المكبوسة وسائر المكبوسات والاثمار الغير الناضجة. لا تاكل شيئاً من غير ان تغسل يديك بالصابون المصنوع مع الفنيك . لا تشرب ماء الا بعد غليه جيداً وتبريده بالهواء او ان تضع في كل لتر من الماء ٦٠ سنتيغراماً من الحامض السيتريك او ان تقتصر على المياه المعدنية . اجتنب التعب الشديد والسهر الطويل وما وراءه . وانت اعلم بما وراءه

اما منزلك فاول كل شيء يجب عليك فيه هو تنظيف (محلات الراحة) وصب الحامض الفينيك التجاري فيها . واجعل كل غرفة في اتم نظافة وافتح نوافذه طول النهار واغسل جسمك كل يوم مرة واجعل ثيابك في اتم نظافة

ومتى شعرت باقل اسهال او قيء او مغص فالزم فراشك في الحال واستدع الطبيب. ولتكن في جيبك زجاجة من اللودونوم واخرى من روح النعنع لتاخذ منهما عشر نقط اول شعورك باعراض الوباء

﴿ علاجه ﴾ كثرت علاجات هذا الوباء منذ انتشاره في العالم وكلها لم تات بالنتيجة المقصودة . فقد عالجه بعضهم بالمسهلات وبعضهم باعادة الحرارة الى الجسم بالدلك او بالحمامات الحارة او الباردة وبعضهم عالجه بالزرنيخ والستركتنين وماء الفضة . اما الدكتور كلبرر فانه اضعف ميكروب الوباء بواسطة الحرارة والهواء ثم لقح بعض الحيوانات به واستخرج منها مصلاً حقن به الانسان فلم تنجح التجربة . ثم قام الدكتور كنتشاني

الايطالي وعالج المرض حقناً في المستقيم بحامض التينيك الذي هو اشد الادوية فعلاً في قتل ميكروب الكوليره وطرد سمومه من الامعاء فنجح بعض النجاح . و بعد ذلك استعملوا السالول في معالجته فنجح كثيراً وهو الآن كثير الاستعمال في الهند . وكثيراً ما يسري سم الميكروب في كل الجسم فيفتقر الدم الى مادة تطهره وتعيد اليه ما خسره من المصل فيحقنون المريض حينئذ بمصل صنعه الدكتور حايم الفرنسوي وهو مركب من ماء مقطر وملح وكبريتات الصودا . والله الواقي في كل حال وعليه الاتكال

رنان وانكاره العجائب

﴿ العقل والقلب ﴾ وردنا مع بريد سوريا منذ مدة مقالة طويلة عنوانها « رنان والعجائب والدين » وتوقيعها « خادم الانسانية » اما موضوع هذه المقالة فهو الردّ على ما ذكره رنان من انكار العجائب ومحاولة اثباتها من طريق العقل . وقد ساءنا ما ذكره كاتبها في صدر كلامه من انه سمع من بعض مواطنيه ان الجامعة لا تقبل ردّاً على هذا الموضوع . وانما ساءنا هذا القول لان الجامعة لا تقفل باباً لها دون الردود النزيهة التي لا يقصد بها اصحابها الا اظهار الحق ومدافعة الدليل بالدليل . ولكن متى خرج الكلام عن دائرة الدليل والبرهان فانها تضطر الى اهماله او الى حذف ما كان فيه مخالفاً لذلك المبداء . كما صنعنا في الرسالة التي نحن الآن في صددها

ثم ان البرهان في هذه المسائل قسمان : قسم نسميه « برهان عقلي » وقسم نسميه « برهان قلبي » فالبرهان العقلي مبني على قاعدة الفيلسوف باكون وهي الاختبار والمشاهدة والامتحان . ومعنى ذلك ان لا نعتبر الشيء حقيقياً الا متى جربناه عدة مرات وادى الى نتيجة واحدة . واما « البرهان القلبي » فهو شعور الانسان بالامر مع عدم قيام الدليل العقلي عليه . كشعور كل نفس بوجودها الذاتي وشعور القلب بلذة الخير والفضيلة والصلاح وهي الامور التي كثيراً ما تهكم عليها العقل وحسبها ناشئة عن التربية والعادة لا عن وجدان الانسان نفسه

ومن ذلك يتضح الفرق بين « البرهان العقلي » و « البرهان القلبي » . ولذلك نرجو مع جميع محبي خير الانسانية في الارض ان لا يسطو هذان البرهانان احدهما على الآخر بل ان

يبقى كل واحد منهما في دائرته : الفلسفة والعلم في دائرة العقل · والدين في دائرة القلب · وكل واحد من الاثنين نافع وضروري للانسانية متى كان منزهاً عن الشوائب · ولا سبيل لاثبات احدهما من طريق الآخر لان وظيفة الواحد منهما تختلف عن وظيفة الآخر · ولذلك اخطاء جناب كاتب الرسالة في ما حاوله من اثبات الامور الدينية من طريق العقل لان المقدمات التي بنى عليها نتائجه لا تسلم من الردّ « عقلياً » · وقد كان في غنى عن كل ردّ بان يقول مثلاً : قلبنا بوء من بذلك وكفى

وبناء على ذلك نقول انه ليس شيء اوقح من العقل متى رام الضغط على القلب وانكاره كما انه لا اوقح من القلب متى رام الضغط على العقل لسدّ طريقه · وهذا الفصل بين « القلب » و « العقل » واجب في كل دين وكل مذهب لا في دين مخصوص ومذهب مخصوص · فعلى اصحاب العقل ان يسمعوا صوت القلب من غير ان يسخطوا عليه وعلى اصحاب القلب ان يسمعوا صوت العقل من غير ان يحملوا عليه · ذلك لانه لا ينشأ عن احتكاك هذه « الاصوات » الا كل خير للانسانية · فما كان من الارض يسقط ويفنى وما كان من السماء يقوم ويقوى · والجامعة لا تألو جهداً في ترديد هذين الصوتين والتوفيق بين هذين المبدأين ليختار القارىء المبدأ الذي يلائم طبيعته من غير اكراه ولا اجبار · والدليل على ذلك انها نشرت " بولس وفرجيني " (جهة القلب) في الجزء الذي نشرت فيه " تاريخ رنان " (جهة العقل) · وهي لا يهمها في هذا السبيل سخط او رضى من اي جانب كان لانها تعتقد انها بذلك تخدم الفكر البشري في الشرق خدمة صارت واجبة وانها في الطريق القويم

اما الرسالة التي ردّ بها « خادم الانسانية » على قول رنان في العجائب (المعجزات) فهذا اهم ما ورد فيها :

«ان مسالة العجائب مسالة تاريخية لا عقلية · فهي من الوقائع اليومية · والدليل الذي تحتاج اليه هو الدليل التاريخي · وقد اثبت التاريخ كثيراً من الوقائع التي ما كان العقل يصدقها لولا حدوثها · مثلاً اي عقل يصدق ان الاتان تلد ابنة ومع ذلك فقد شوهد هذا الامر ٠٠ اي عقل يصدق باشتعال النار تحت الماء ولكني شاهدته عياناً لما اتصل الحامض النيتريك بالفصفور · والعقل لا يصدق ايضاً ان اسفل السفينة يُثقَب ولا تدخلها المياه ومع ذلك فقد قرأتُ الحادثة منذ مدة في احدى المجلات العلمية العربية · فان كاتب

المقالة غاص في احدى الغواصات مع مخترعها في جوف البحر ولما تكاثف الهواء المضغوط في غرفة في الغواصة فتح فيها باباً على الماء وهي في قعر البحر فصار الماء واقفاً لدى الباب والباب مفتوح دون ان يدخل الماء فيه . فالعقل يحكم في الممكنات بحسب اختباراته اما في الوقائع فالحكم للشهادة لا للعقل وليس على العقل حينئذ الا ان يسكت او يؤمن . ولو اخبروا الزنجي في اواسط افريقيا ان المياه تتجمد وتتصلب بحيث تدوسها الخيول وتجري عليها المركبات ولا تغرق فيها لقال لك ان العقل لا يصدّق ذلك . ولكنك متى اخذته الى مدينة اركنجل او كويبك وشاهد ذلك بعينه لصدقه وحسبه امرًا اعتيادياً . ويروى ان فولتير لما سمع بما ارتآه نيوتن من « ان العقل البشري سيبلغ مبلغاً يتمكن فيه من قطع ٥٠ ميلاً في الساعة » هزأ به وحسبه حديث خرافة . افيستطيع فولتير اذا فتح عينيه اليوم ان ينكر سير قطارات البخار ٥٠ ميلاً الى ١٠٠ ميل تقريباً في الساعة

وبما ان العجائب الواردة في الكتب المقدسة حوادث تاريخية فيجب ان يكون حكمها حكم الوقائع التاريخية . ومتى ثبتت فلا يهمنا امر مطابقتها للنواميس الطبيعية او عدم مطابقتها كما انها لو عدمت الاثبات التاريخي لما افادتنا شيئاً مطابقتها تلك النواميس وتصديق العقل اياها

وقد قال رنان « اذا كانت العجائب صحيحة فلماذا لا تحدث الآن في قلب باريز عجيبة كبيرة تفتح عيون الذين لا يصدقون وتجعلهم يصدقون »

فنقول ليس هذا الاعتراض اعتراض فيلسوف ولكني لا اظن ان الفيلسوف يستطيع ان يعترض اعتراضاً امتن منه ضد العجائب وجواباً عليه اقول

لنفرض ان العجيبة التي يقترحها رنان قد حدثت في وسط باريز وقد شاهدها بنفسه . فعلى كل حال يكتب عنها رنان بقلمه الرنّان . فلنفرض انه كتب عنها وارسل هذا الكتاب الى سوريا فهل يريد منا ان نصدقه . ولكن لماذا لا نصدقه وهو رجل مخلص وقد كتب ما رآه عياناً . اذًا فلماذا لا يصدق رنان الذين كتبوا قبله

ولنفرض ان كتاب رنان الشاهد بحدوث المعجزة في باريز انتشر في العالم انتشار الانجيل فهل تُحسب شهادة رنان المكتوبة اضعف من شهادته الشفاهية . كلا . وغاية ما يُطلب لاعطائها قوتها امران : الاول ان تكون بالحقيقة كتابة رنان والثاني ان يكون رنان كتب عما رآه بنفسه وهذا هو الواقع في البشائر بالتمام

ولنفرض ان الناس عموماً قبلوا كتاب رنان هذا . ومات رنان واهل عصره وبقي كتابه

بين ايدي الجمهور مدة الفي سنة · وبعد هذه المدة الطويلة نبغ فيلسوف آخر اسمه رنان — وقد بلغ الناس يومئذ في العلوم والمعارف اسمى الدرجات وارتقى العقل البشري حتى صار علماؤُنا يُعدون اميّين بالنسبة الى علماء ذلك الزمن — فقام رنان الجديد المفروض وانكر شهادة رناننا هذا ليس لارتياب فيه ولا لقيام البينات التاريخية ضده ولا لسبب آخر بل لان العقل لا يصدقها · فماذا نعمل · انرجع عن الشهادة العيانية الثابتة مدة الفي سنة اكراماً لرنان الجديد

ثم لو نشر رنان هذا شهادته في الصحف الاخبارية وصدقها جميعهم الا ينشرون مئات من المقالات لتعليل الحادثة تعليلاً ينطبق على النواميس الطبيعية · وبعد ذلك الا يبقى محل للاعتراض على شهادة رنان · الا يقول قائل : اذا كانت العجيبة صحيحة فلماذا لا يحدث اليوم مثلها في برلين وروما وفينا

ثم انني انظر الى المسالة من وجه آخر فالقي الاسئلة التالية

اولاً هل ما نسميه نواميس طبيعية هي عوامل او كيفيات تجري المادة بحسبها

ثانياً اذا كانت كيفيات (كما لا بد ان تكون) فما هو الفاعل فيها

ثالثاً اذ كان الفاعل فيها هو الخالق افلا يلزم عن ذلك انه متسلط عليها

رابعاً اذا كان ذلك كذلك افلا ينتج منه ان العجائب ممكنة عقلاً

خامساً اذا كان كل ما تقدم معقولاً فما المانع من حدوثه فعلاً · افلا يكون حدوثه مطابقاً لما يليق باوصافه الجليلة

سادساً هل يجوز ان نتخذ اختباراتنا الجزئية اساساً لنفي الوقائع

﴿ خادم الانسانية ﴾

نقول · ربما كانت هذه الادلة اقوى الادلة العقلية على صحة العجائب · ولكن رنان يردُّ عليها بقوله

« ربما يقولون انه اذا كان من المستحيل اقامة دليل عقلي على حدوث العجائب فمن المستحيل ايضاً اقامة دليل عقلي على عدم حدوثها · فنجيبهم « ان البينة على المدعي » لا على سواه · ولو جاء قوم الى بيفون العالم الطبيعي وقالوا له ضع الغول والعنقاء في سلك الحيوانات فبماذا يجيبهم · انه يجيبهم اروني اياها اولاً والا فانني لا اعتقد بها · وان قالوا له اقم دليلاً

على عدم وجودها فانه يجيبهم لا محالة: « بل عليكم انتم ان تقيموا الدليل لا عليَّ »

« واذا قالوا ان الانسان عجيبة من العجائب لانه لم يُخلق الا بقدرة الله ومَن صنع هذه العجيبة فانه يصنع غيرها ايضاً . فالجواب عن ذلك ان هذا القول يغيّر وجه المسالة فان كل شيء مجهول يصير بمقتضاه عجيبة من العجائب . ان الشمس تكون حينئذ اعجوبة لان العلم لم يعرف بعدُ ماهيتها حق المعرفة . وتكوّن الانسان في بطن امه يكون عجيبة ايضاً لان الفسيولوجيا لم تعرف بعدُ كما نريد معرفته عنه . والضمير في الانسان عجيبة ايضاً لانه لا يزال سرّاً من الاسرار الغامضة . وهكذا يصير كل مجهول عجيبة . فهل هذه هي العجائب . كلا وانما معنى العجيبة الحقيقي وتعريفها الصحيح « خروج النواميس المعروفة عن نظامها الثابت بواسطة ارادة خصوصية » واذا قيل ان الله خالق هذه النواميس كائن في كل الكائنات وهو الذي يمد يده القادرة ويُخرجها اذا شاء عن نظامها المالوف الثابت فنجيب ان من معتقدنا ان الله كائن في كل الكائنات ولكننا لا نعتقد انه يُخرجها عن نظامها المالوف اذ لم يثبت انه صنع ذلك . واذا قيل انه صنع هذا الصنع في زمن مضى ولا يعود قلنا ان هذا القول انما هو بمثابة الاختباء وراء غيوم الماضي » راجع الجامعة السنة الثالثة الجزء السابع الصفحة ٤٥٧

ومن ذلك تظهر صحة ما ذكرناه في صدر الكلام من ان اصحاب القلب لا يظهر ضعفهم اشد ظهور الا متى راموا اقامة الدليل من العقل على القلب ولا يكونون في اشد قوتهم الا متى اجتنبوا الخروج عن دائرة القلب الى دائرة العقل

شرقي يرثي الشرق

بعد مطالعته تاريخ العرب في الاندلس في الجزء الاول من الجامعة وترجمة ابن رشد في الجزء الثامن

تمايل ذا الدهر حتى اضطربْ ... وقد ينثني العطف لا من طربْ

ومرّ زمانٌ وجاء زمانٌ ... وبين الزمانين كل العجب

فقوم تدلوا لتحت الثرى ... وقوم تعلوا لفوق الشهب

لقد وعظتنا خطوب الزمانْ ... وبعض الخطوب كبعض الخطب

ولو عرف الناس لم تهدهم سبيلَ المنافع الا النوب
فيا ربّ داء يكون دواء اذا عجز الطب والمستطب
ومن نكد الدهر ان الذي ازال الكروب غدا في كرب
وان امرءاً كان في السالبين فاصبح بينهم يُستلب
الستَ ترى العرب الماجدين وكيف تهدم مجد العرب
فاين بناؤهم المشمخرّ واين العماد واين الطنب
واين الذي رفعته الرماح واين الذي شيدته القضب
واين شواهق عزٍ لنا تكاد تمس ذراها السحب
لقد اشرق العلم من شرقنا وما زال يَضؤل (حتى غرب)
وكنا صعدنا مراقي المعالي فاصبح صاعدنا في صبب
وكم كان فينا ذوو همة سمت بهم لمعالي الرتب
وكم من هزبر تهز البرايا بوادره ان ونى او وثب
واقسم لولا اغترار العقول لما كف اربابها عن ارب
ولولا الذي دبّ ما بينهم لما استصعبوا في العلا ما صعب
ومن يُطعم النفس ما تشتهيه كمن يطعم النار جزل الحطب
الا رحم الله دهراً مضى وما كاد يبسم حتى انتحب
وحيّى ليالَي كنا بها رعاةً على من نأى واقترب
فملكاً ثقيل اذا ما كبا وعرشاً نُقيم اذا ما انقلب
سلوا ذلك الشرق ماذا دهاه فارسله في طريق العطب
لو ان بنيه اجلّوا بنيه لاصبح خائبهم لم يخب
فقد كان فيهم مقر العلوم وقد كان فيهم مقر الادب
وهل تنبت الزهرَ اغصانهُ اذا ماء كل غدير نضب
وهل (كابن رشد) على فضله يُسام الهوان وسوء النصب
كأن لم يكن صدره منبعاً لما كان من صدره ينسكب
ومن يستبق للعلا غاية فاولى به من سواه التعب
وليس بضائر ذي مطلب اذا كفه الناس عما طلب
فكم من مصابيح كانت تضيء بين الرياح اذا لم تهب

وما عيب من صدف لؤلؤ ولا عاب قدر التراب الذهب

بني الشرق اين الذي بيننا وبين رجال العلا من نسب
لقد غابت الشمس عن شرقكم الى حيث لو شئتم لم تغب
الى الغرب حيث اولاء الرجال وتيك العلوم وتلك الكتب
فان كان هذا بحكم الزمان فتبت يدا ذا الزمان وتب
وان كان مما اردتم فلا تنال العلى من وراء الحجب
فدوروا مع الناس كيف استداروا فان لحكم الزمان الغلب
ومن عاند الدهر فيما يحب رأى من اذى الدهر ما لا يحب

مصطفى صادق الرافعي الطرابلسي

رد امام جليل

﴿ على مقالة الجامعة في ابن رشد ﴾

(ورد الجامعة على الرد)

نشرنا في الجزء السابق ترجمة ابي الوليد بن رشد فيلسوف الاندلس واشهر فلاسفة الاسلام . وقد كان غرضنا من هذه الترجمة الدخول الى دار الفلسفة من باب كبير لتوجه الانظار اليه احياء لهذه الصناعة المهملة . فيظهر مما كان لتلك المقالة من الاهمية اننا قد اصبنا الغرض المقصود

فاننا بينما كنا نشتغل بكتابة ترجمة حجة الاسلام ابي حامد الغزالي فيلسوف المتكلمين الاكبر الذي فاق « من جهة القلب » كل فلاسفة العرب كما فاقهم ابن رشد « من جهة العقل » (١) واذ وردنا من القاهرة من امام جليل طبقت شهرته العالم العربي ردٌّ على مقالة ابن رشد . فارتحنا الى تلاوة هذا الرد لامرين : الاول لاننا مولعون بمطالعة كل ما يُكتب عن هذا الفيلسوف والثاني لان فضيلة الاستاذ صاحب الرد هو الثقة الذي يُرجع اليه في هذه المسائل . ولقد دفع الاستاذ هذا الرد ايضاً الى مجلة المنار الاسلامية الغراء التي تُطبع في العاصمة وعنها اخذتها رصيفتنا جريدة المؤيد الغراء . وبما ان جميع القراء

(١) اطلب تفسير « جهة العقل وجهة القلب » في هذا الجزء الصفحة ٦٢٠

في العالم العربي قد اطلعوا عليه بعد نشره في جريدة المؤيد المنتشرة في كل الاقطار فقد اكتفينا بذكره في الجامعة ذكرًا يطلع القراء على اهم اغراضه وبخاصة الامور التي خطأ الاستاذ الجامعة فيها لتتمكن الجامعة من اظهار حقيقة معناها وايضاح الاشكال فيها . وانا نقول الردّ عليها لان علم الاستاذ الجليل اوسع من ان يُواجَه برد . فنقول

افتتح الاستاذ ردّه على الجامعة بقوله انه استاء من فصل ورد في المقالة عن « الاضطهاد في النصرانية والاسلام » ثم قال « لاقاني بعض قراء تلك الترجمة فرايت الاثر في نفسه اشد . ولسانه في العتب احدّ . وذكر اشياء في غير هذا الفصل من الترجمة ولفتني الى اعادة النظر فيها . رجعت الى الترجمة فوجدت فيها موضعين آخرين يطلبان مني الكلام عليهما . وبان احادث الجامعة فيهما . لو كانت منزلة الجامعة من نفسي منزلة غيرها من المجلات التي لا يُعنى كاتبوها الا بنقل ما يقع تحت انظارهم . او تحبير ما يعبر عن اهوائهم وافكارهم . من دون عناية بتقرير الحقيقة . ولا رعاية لمعتقدات القراء — لوجدت من شواغل عملي ما يصرفني عن ذكر ما عرض فيها . لكنها من المجلات التي لو اهملتُ مباحثها من انعام النظر وجعلتها في جانب عما تستحقه من النقد لبخستها حقها . ونبوتُ بها عن موضعها

« لهذا رايت ان اذكر لها ما رايت في ذينك الموضعين وابين حقيقة الامر في الثالث . اما الموضعان فهما (فلسفة المتكلمين وآراؤهم في الوجود) و (فلسفة ابن رشد وآراؤه في خلق العالم واتصال الكون بالخالق وطريق اتصال الانسان به والخلود) وهما موضوع كلامي اليوم »

وبعد ذلك اندفع الاستاذ في الكلام على فلسفة المتكلمين وحدوث المادة واختيار الخالق واثبات الرابطة بين الاسباب ومسبباتها في مذاهب المتكلمين وراي ابن رشد في المادة وخلق العالم واتصال الانسان بالخالق سبحانه وتعالى . ثم ختم هذا الرد الذي يستغرق عشر صفحات في الجامعة بقوله « ولعلّ الجامعة لا تعتب على الكاتب فيما كتب وفيما اجاب به من طلب فقد وفى حقًا لها لو اغفله مع علمها بالقدرة عليه لحقّ لها ان توجه العتب اليه »

وبعده هذه الخاتمة « هذا ما اردنا ايجاز القول فيه متعلقًا بفلسفة المتكلمين وراي الفيلسوف وسنتبعه بمقال آخر فيما حكمت به الجامعة في الكلام على الاضطهاد في النصرانية والاسلام ان شاء الله تعالى »

فنحن بعد مطالعتنا هذا الرد بالامعان الواجب له وجدنا ان الاستاذ يخطّىء الجامعة في الامور التالية . وقد اردنا حصرها ليسهل الكلام عنها . وهي في قسمين : قسم في الامور

الكلية وقسم في الامور الجزئية

﴿ الامور الكلية ﴾

اما الامور الكلية التي خطّأ الاستاذ الجامعة فيها فهي

الاول — ان المتكلمين لا يُنكرون الاسباب وان الخلاف بينهم وبين الفلاسفة في هذا الشان جزئي صغير

الثاني — ان ما ذكرته الجامعة عن فلسفة ابن رشد وآرائه في خلق العالم واتصال الكون بالخالق وطريق اتصال الانسان به والخلود لا ينطبق على حقيقة آراء الفيلسوف

الثالث — ان ما ذكرته الجامعة عن « العقل الاول » مخالف لمذهب الفلاسفة في « العقول »

هذه هي الامور الكلية التي خطّأ الاستاذ الجامعة فيها واما الامور الجزئية فسنذكرها بعد الفراغ من تلك الامور . فنقول

﴿ الاعتراض الاول ﴾ قال الاستاذ ان المتكلمين لا يُنكرون الاسباب وان الخلاف بينهم و بين الفلاسفة في هذا الشان جزئي صغير . اما نحن فنرى انّ الخلاف كليّ وان لباب الفلسفة يعارض لباب الكلام على خط مستقيم . واليك البيان

لا يخفى ان الفلسفة اليونانية هي اول فلسفة قررت للطبيعة نظاماً ونواميس . وقد بسط ذلك ايضاً لوكريس الشاعر اللاتيني في احد كتبه . ولذلك فان جميع الامم التي لم تعرف الفلسفة اليونانية والرومانية كانت تعتقد فيما يختص بحوادث الكون وتدبير العالم اعتقادات لا تنطبق على مبادىء الفلسفة . فلما شرع المنصور والمامون في نقل الفلسفة اليونانية الى اللغة العربية بترجمة الكتب اليونانية والهندية والفارسية راى علماء الكلام ان هذه الفلسفة منافضة لاصول الدين الاسلامي . فكان شانهم في ذلك شان علماء اللاهوت في الدين المسيحي عند وصول هذه الفلسفة اليهم بواسطة ابن رشد وتلامذته . فهبوا الى معارضتها ومقاومتها . ولذلك جاء في تعريف « علم الكلام » في « التعريفات » انه (كما بقي في الذهن) : علم البحث في الخالق وصفاته بحسب شريعة الاسلام لنقض اقوال الفلاسفة . وهذا التعريف وحده كافٍ للدلالة على ان علم الكلام جُعلَ بعد نشأته لنقض الفلسفة

وسبب ذلك ان لعلم الكلام في الدين الاسلامي (كما للاهوت في الدين المسيحي) اصلين عظيمين عليهما بُني الدين كله . وهما : ان المادة حديثة يعنون غير قديمة اي مخلوقة بخلق خالق . والثاني ان الخالق الذي خلقها منفصل عن الكون ومطلق التصرف فيه وعالم بجزئياته وكلياته . و بعبارة اخرى نقول ان المليين اي اليهود والمسلمين والنصارى يعتقدون ان هذا العالم مخلوق منذ مدة لا تتجاوز بضعة الاف من السنين كما جاء في كتبهم وان خالقه سبحانه وتعالى يعلم كل ما يحدث فيه من جزئي وكلي و يدبره بعنايته وارادته . ولذلك جاء في صلاة المسيحيين « فلتكن مشيئتك » وجاء في القران « والارض لله يورثها من يشاء » واجمل صلاة عند الفلاسفه المليين قولهم « اللهم اعطنا ما تشاء بقدر ما تشاء حينما تشاء » هذا هو اعتقاد المتكلمين واللاهوتيين في الخالق على وجه الاجمال . واما الفلسفة فانها تمحو بيدها الثقيلة الغليظة كل هذه الآمال الجميلة وان كان تعليمها لم يثبت بعدُ من حسن الحظ وفرقها مختلفة فيه . فانها تقول ان المادة قديمة ازلية وان للطبيعة نظاماً ونواميس ثابتة لا تتغير . وان الكون لم يوجد الا بحسب هذا النظام وتلك النواميس . وان هذه النواميس اذا اتبعها المجوسي مثلاً وخالفها الكتابي (الاسرائيلي او المسلم او المسيحي) فاز المجوسي وسقط الكتابي . و بالعكس . هذا سبب الخلاف الاعظم بين الفلاسفة والمتكلمين واللاهوتيين مذكور بعبارة بسيطة وهو ما قصدناه حين المقارنة بين الفيلسوف ابن رشد والمتكلمين

وعلى ذلك فمسالة الرابطة بين الاسباب والمسببات لم تعد بعد هذا البيان مسالة جديرة بالذكر والاهتمام . لان جاحد الاسباب يستطيع مثلاً ان يعتقد بها في الظاهر و يبقى على اعتقاده القديم من جحود حقيقتها في الباطن . مثال ذلك ان يقول « ان الخالق هو الذي جعل تلك الاسباب . فمتى حدثت الحوادث ونسبناها الى اسبابها كان ذلك بمثابة نسبتها اليه » وهو تخلص مألوف . ولكن هل يستجيز المليّون وفيهم المتكلمون القول « بان الخالق لا يمكن ان يناقض تلك الاسباب ولا ان يغيرها لانها ثابتة لا تتغير او انه على الاقل لم يثبت انه غيرّها وناقضها » لا ريب ان المتكلمين يُنكرون ذلك كل الانكار لانه يؤدي الى انكار الوحي . ولذلك فاعترافهم بالاسباب انما هو اعتراف سطحي . وهذا ما جعل الامام الغزالي يقيم الدنيا و يقعدها على الفلاسفة ليبرهن لهم ان الاسباب الحقيقية ليست موجودة في الامور التي تقع تحت ابصارهم بل في الخالق نفسه . وان النواميس الطبيعية هي « اسباب عادية لانه ليس من الواجب على الخالق التزامها » وانه ليس في الكون شيء ثابت

وغير قابل للتغيير الا الله وحده . وكانه لم يكتف بتجريد النواميس الطبيعية من صفة الثبات فهاجم الفلسفة من جانبها الضعيف فكاد يصيب مقتلها . فانه بسط في كتابه « تهافت الفلاسفه » مذاهب جميع الفلاسفة ونقض كل واحد منها واظهر ما فيها كلها من الضعف والتناقض والاختلاف ثم صاح بعد ذلك : ان العقل لا يوصل الى الحقيقة لانه يخبط خبط عشواء في ليلة ظلماء . فصفق جميع معاصريه طرباً لهذا الحكم الذي ضعضع به الفلسفة ولقبوه « حجة الاسلام » اي برهانه القاطع وكوكبه الساطع . وفي الحقيقة انه كان كذلك . و يسوءُنا جداً ان نكون قد اضطررنا في هذا الجزء الى الاشتغال بهذا الرد عن كتابة ترجمة هذا الحكيم العظيم الذي كان له على بني عصره تاثير ما بعده تاثير . ولكن يسرنا في مقابلة ذلك ان اشتغالنا عنه كان بمحادثة الاستاذ الذي ناب في قومه منابه في هذا الزمان

فمن ذلك كله تتضح ثلاثة امور (١) ان المتكلمين كانوا اعداء للفلسفة منذ نشاتها لانها كانت تستغني عنهم وعن علمهم وتطلب معرفة الخالق بعلمها الخاص . (٢) انهم كانوا يرومون الحط من منزلة العقل كما تقدم ليتمكنوا من ضعضعة الفلسفة واضعاف مذهب الفلاسفة في الاسباب والمسببات (٣) انهم كانوا ينكرون الاسباب « كما يفهمها الفلاسفة » . والدليل التاريخي على ذلك قول ابن رشد نفسه في آخر كتابه (فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال) ما نصه بحرفه وهو . « كثير من الاصول التي بنت عليها الاشعرية (وهم من المتكلمين) معارفها هي سو فسطائية . فانها تجحد كثيراً من الضروريات مثل ثبوت الاعراض وتاثير الاشياء بعضها في بعض ووجود الاسباب الضرورية للمسببات والصور الجوهرية والوسائط . ولقد تعدى نظارهم في هذا المعنى على المسلمين ان فرقة من الاشعرية كفرت من ليس يعرف وجود الباري بالطرق التي وضعوها لمعرفته في كتبهم وهم الكافرون والضالون بالحقيقة »

هذا راي ابن رشد بالحرف الواحد في مناظريه الذين عنيناهم في ترجمته . وهو قول صريح لا يقبل الرد ولا التاويل واصدق دليل على اننا لم ننسب الى مناظري الفيلسوف في ترجمته الا ما كان ينسبه اليهم هو نفسه

واما « المعتزلة » التي ذكر الاستاذ عنها انها من بين فرق المتكلمين الفرقة التي تعتقد بالاسباب اعتقاداً وطيداً فانها لا تدخل في موضوعنا . وذلك لعدة اسباب : منها ان المعتزلة كانت خصماً للمتكلمين الذين كان ابن رشد ينازلهم في مناظراته . وخصم خصمك

صديق لك وان كانت تفصلك عنه امور اخرى . ومنها ان المعتزلة لم تاخذ مبادئها العقلية في الاسباب وغيرها الا من الفلسفة اليونانية التي سعى المنصور ثاني خلفاء العباسيين في ترجمة بعض كتبها قبل المامون . ولذلك فان النبع الذي استقت منه هي وابن رشد واحد . ومنها ان المعتزلة رامت ان تعمل في الدين الاسلامي ما عمله الانجيليون (البروتستانت) بعدها في الدين المسيحي فانها قررت خلق القرآن وغير ذلك من الامور . فهي اذاً موضوعة خارج دائرة المتكلمين الذين وظيفتهم الدفاع عن السنة الاصلية الحقيقية .

وفضلاً عن ذلك فان المعتزلة لا تعتقد بالاسباب « كما يفهمها الفلاسفة » بل مذهبها فيها وسط بين الفلاسفة والمتكلمين . ونحن نشكُّ قطعياً ان في العالم فرقة دينية (اسلامية كانت او مسيحية) تعتقد بهذه الاسباب اعتقاداً ينطبق على مذهب الفلاسفة (١) اي الاعتقاد بان تلك الاسباب ثابتة لا تتغير ابداً « لان الخالق خلقها غير قابلة للتغيير » . وعلى ذلك يكون بين المذهب الفلسفي والمذهب الملّي ما بين الارض والسماء . ولا غرابة ولا عجب فان الواحد ارضي والآخر سماوي . و بعبارة اخرى : واحد عقلي و واحد قلبي . ولولا هذا البون العظيم بين المذهبين لما حدث في التاريخ ما حدث بين الدين والفلسفة في كل دين ومذهب . لان مجرد اعتراف الفيلسوف بان الخالق سبحانه وتعالى يخرق نواميسه في كل يوم لانقاذ عباده الصالحين واختصاصهم بنعمه — كافٍ لان يُرضي خصميه المتكلم واللاهوتي اذ في ذلك تغلبهما عليه ونقض لاساس الفلسفة « الحقيقية »

الاضطهاد في المذهبين — هذا ما نذكره عن المتكلمين والفلاسفة وفيه الكفاية . وقبل الانتقال من هذا الموضوع الى موضوع آخر نورد ما ذكره الاستاذ بعد بسطه فلسفة المتكلمين في الاسباب . قال ما نصه : « فان شئت ان تقول انه مذهب مع ذلك غامض يكدُّ الذهن في فهمه فلك ان تقول وان تنعم النظر حتى تفهم مبانيه واصوله » ولا ريب ان الاستاذ لم يقل هذا القول الا لافتكاره بان « الاعتقاد بتغير النواميس الطبيعية » والاعتقاد « بوجودها » نقيضان لا يجتمعان ولذلك قال عن مذهب المتكلمين فيه انه مذهب غامض . وقال في الختام « نعم طرأ فساد على عقائد بعض المنتسبين الى ائمة ذلك المذهب واساءوا الظن بالقدر وتظاهروا بترك الاسباب في اقوالهم وان كانوا اشد الناس تمسكاً بها في اعمالهم . وتعلقوا

---

(١) الا بعض الانجيليين الذين يعتقدون بمذهب الفيلسوف سبنسر ويُحسبون مع ذلك انجيليين

من الخوارق بجبل واهن ميلاً الى اهواء من جاورهم » نقول فما العمل اذا كان الحول والطول والسلطة في كل الازمان وفي كل الاديان انما هي للفرقة التي عناها الاستاذ . فهي التي اضطهدت العلم والفلسفة في العالم لاطفاء نور العقل . هي التي كانت تهاجم الفلاسفة والعلماء فتحرق منازلهم في الاندلس قبل ان يدري بها رجال الشرطة . ومن غير انذار ولا محاكمة . هي التي كانت تكوي سمعة كل مشتغل بالفلسفة بكلمة نارية كانت تفعل فيه وفي مصالحه فعل السم في البدن في ذلك الزمن وهي كلمة « زنديق متمنطق » ولذلك جاء في امثالها « من تمنطق فقد تزندق » . واحياناً كانت تزجّ اصحاب العقول في السجون واحياناً كانت تقتلهم كما فعلت بابن حبيب الاشبيلي . هي التي كان اذا احسّ بعض الخلفاء بارتجاف عروشهم من تحتهم بادروا الى التزلف اليها باضطهاد العلم والفلسفة كما صنع الحاجب المنصور في الاندلس حين اغتصابه الخلافة من هشام واحراقه جميع كتب المنطق والفلسفة في احدى ساحات قرطبة تزلفاً لتلك الفرقة . وهي هي التي فعلت في المسيحية كما فعلت في الاسلام لان الانسان انسان سواء كان مسلماً او مسيحياً اي فيه كل رذائل الانسانية وفضائلها . ولذلك قتل المسيحيون فلاسفتهم وعلماءهم واهانوهم وملأوا تاريخهم بحوادث يحمرّ منها وجهه ووجوه ابنائهم خجلاً . — هذه هي حال تلك الفرقة عند المسيحيين والمسلمين معاً . ونحن نسلّم مع الاستاذ بان كل الضرر منها . ونزيد على ذلك انه يكون وراءها عادةً في كل ملة وكل دين رجال افاضل عقلاء لا يرضون عن اعمالها ولكنهم يسكتون بالرغم عنهم ورجال افاضل عقلاء لا يطيقون السكوت كابن رشد وغيره فتقوم القيامة عليهم . ولكن بما اننا سلمنا مع الاستاذ بهذا الامر البديهي فاننا نؤمل ان يسلم معنا بامر بديهي آخر وهو : وجوب الدفاع عن الفلاسفة والعلماء في هذا الزمن زمن الفلسفة والعلم لا عن الفرقة التي لم يكن لها من غرض في كل عصر وكل ملة غير خنق الفلسفة والعلم . لان الدفاع عنها واثبات ما ليس لها لها حيف وظلم لاولئك الشجعان الكرام الذين كانوا مناظريها وراحوا شهداء في سبيل مناظرتها . بل هو بمثابة تخطئة لهم ولمبادئهم ووضع الحق في جانب مناظريهم . مع انهم لم يقدموا على ما اقدموا عليه من الامور العظام الا وهم يعتمدون على انصاف ابنائهم في المستقبل لاعطائهم حقهم وقدرهم قدرهم

التاويل — وقد قال الاستاذ ايضاً « القول بنفي الرابطة بين الاسباب ومسبباتها جدير باهل دين وردفي كتابه ان الايمان وحده كاف في ان يكون للمؤمن ان يقول للجبل تحوّل عن مكانك فيتحول الجبل . يليق باهل دين يعدّ الصلاة وحدها اذا اخلص المصلي فيها كافية في

اقداره على تغيير سير الكواكب وقلب نظام العالم العنصري . وليس هذا الدين هو دين الاسلام . دين الاسلام هو الذي جاء في كتابة « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم » — نقول اننا لا نجيب عن ذلك شيئاً ولكننا ناسف لصدور هذا الكلام عن قلم الاستاذ . ولو كان فيلسوف الاسلام ابن رشد من معاصرينا اليوم لقال ولا شك لرفيقه الاستاذ بعد قراءة هذه النبذة ما قاله في كتابه تهافت التهافت من ان في كل دين وملة اموراً اذا لم يؤولها المؤمن تاويلاً شعرياً جميلاً تعذَّر التسليم بها لمعارضتها العقل وادى ذلك الى ضعضعة اساس الاديان . والعجب من الاستاذ كيف نسي هذا الامر مع انه في الدروس الجميلة التي يلقيها في الازهر في تفسير القرآن والتي تنشرها مجلة المنار لا همّ لفضيلتـه غير هذا التاويل

﴿ الاعتراض الثاني ﴾ بلغنا الآن الاعتراض الثاني وهو تخطئة الاستاذ الجامعة في ما لخصته من مذهب ابن رشد وردّه على ما نقلته من راي الفيلسوف في الخلود واتصال الانسان بالخالق وخلق العالم

ولكننا قبل الدخول في هذه المسائل نقدّم عدة مقدمات لنجعلها اساساً للبحث فنقول

(١) من المعلوم ان مبادىء الفلاسفة لا تُعرف من كتاب واحد من كتبهم بل من مجموع كتبهم . فالذي يُقدم على بسط فلسفة لاحد الفلاسفة يجب عليه مطالعة اهم كتبه ليستشهد بها

(٢) ان كتب الفيلسوف ابن رشد لم تُنشر كلها في اللغة العربية . وحسبك انها اليوم اندر الكتب حتى ان مكتبة المجلس البلدي لا تتضمن كتاباً منها . وهي في الاصل مخطوطة بخط مغربي . ولما كان النساخ العرب ينسخونها باللغة العربية كانوا يحذفون المواضع المهمة منها او يبدّلونها فراراً من الملام والاضطهاد . وانما نُشرت سالمة صحيحة في اللغة اللاتينية فقط لان يهود الاندلس من تلامذة ابن رشد " واكثر تلامذته كانوا من اليهود والنصارى » نقلوها الى لغتهم العبرانية لما طردهم العرب من الاندلس الى جبال البيرينه ثم اخرجوها من العبرانية الى اللاتينية ومنها اخذها علماء اوربا . وقد ترجمها اليهود ترجمة حرفية تقريباً حتى ان العالم بالعبرانية يستطيع ارجاع الكلمات العبرانية الى اصلها العربي الا في كتابين او ثلاثة . وعلى ذلك فعلماء الافرنج الذين وقفوا حياتهم في ذلك الزمان لدرس فلسفة ابن رشد او الردّ عليها ادرى بحقيقتها من علماء العرب انه هم لان هذه الفلسفة دخلت في حياتهم الادبية واما العرب فقد سمعوا بها سماعاً فقط او وقفوا

على بعض كتبها

(٣) فبناءً على ذلك لا مناص للكاتب العربي اليوم من اخذ تلك الفلسفة عن الافرنج انفسهم . ولا يُشترط في هذا الاخذ سوى حسن اختيار المؤلف اي ان يكون ثقة ومنصفاً غير متعصب لفريق دون فريق . وهذا ما توخته الجامعة . فانها اعتمدت في تلخيص فلسفة ابن رشد في بضع صفحات على مقالة للعالم كاري في الانسيكلوبيذية الكبرى الفرنسوية وعلى كتاب للمستر مونك المستشرق المشهور الذي حفظ كتب ابن رشد عن ظهر قلبه كما يحفظ المؤلف كتب نفسه . وعنوان هذا الكتاب « مزيج من فلسفة العرب واليهود » وهو في الاصل مقالة نشرها المؤلف في « قاموس العلوم الفلسفي » ثم زاد فيها وجعلها كتاباً على حدة

صحة ما نشرته الجامعة عن ابن رشد

ولما وردنا ردّ الاستاذ ورأينا ما فيه من المخالفة لمبادىء ابن رشد التي بسطناها اعتماداً على هذين العالمين التمسنا كتباً اخرى . فاخذنا كتاباً للمستر مولر عنوانه « فلسفة ابن رشد ومبادئه الدينية » وكتاباً آخر عنوانه « ابن رشد وفلسفته » وهو للفيلسوف رنان المشهور الذي يعرف الاستاذ انصافه ونزاهته وبراءته من وصمة التعصب فضلاً عن معرفته اللغة اليونانية لغة ارسطو واللغة اللاتينية التي تُرجمت اليها كتب ابن رشد ثاني مرة واللغة العبرانية التي تُرجمت اليها اول مرة واللغة العربية التي كُتبت بها في الاصل . ومعلوم ان عالماً عظيماً وفيلسوفاً كبيراً مثل رنان لا يُقدم على شرح فلسفة ابن رشد ويكتب فيها اكثر من اربعمائة صفحة بحجم كبير الا بعد درسها درساً دقيقاً في كتبها العديدة التي كانت قريبة منه في مكاتب اسبانيا وفرنسا وايطاليا

ولكن ما اشد ما كانت دهشتنا حينما كنا نتصفح تلك الصفحات الثمينة . ذلك اننا وجدنا في كل صفحة منها تصديقاً للخلاصة الفلسفية التي نشرناها في الجزء السابق . فهي هي بلا زيادة ولا نقصان مع حفظ نسبة الاختصار والاسهاب في المصدرين . فلم يبقَ عندنا اقل ريب في ان ما ذكرته الجامعة عن فلسفة ابن رشد هو الصحيح من اوله الى آخره وليس في وسعنا حذف كلمة واحدة منه . لانه متى اتفقت الروايات دلَّ هذا الاتفاق على صحة النقل . والاستاذ اعزه الله يعرف اللغة الفرنسوية فاذا شاء بعثنا اليه بكتاب رنان وعليه العلامات التي جعلناها في مواضعه المهمة بقلم من رصاص

ومتى طالع الاستاذ هذا الكتاب تحقق اننا لم ننسب الى الفيلسوف شيئاً من عندنا . فان رنان يثبت في كتابه هذا التعريف الذي عرَّفت به الجامعة المادة في راي ابن رشد وما ذكرته عن طريقة الخلق واتصال الخالق بالكون وما وصفت به العقل الاول واتصال الانسان بالخالق بواسطة العلم لا بالصلاة ويذكر عن رايه في الخلود وعقل الانسانية ما ذكرته الجامعة بالتمام ويقول ان هذا المذهب قريب من مذهب الماديين لانه يقيد الخالق تقييداً لا يقبله دين من الاديان . وعند كل عبارة يذكرها يدل في حواشي الكتاب على ما يثبتها فيقول مثلاً : راجع كتابه تهافت التهافت في الصفحة كذا او راجع كتابه في الطبيعيات الصفحة كذا او اطلب الصفحة كذا من كتابه في ما وراء الطبيعة الخ (١) واحياناً يورد باللغة اليونانية نص كلام اريسطو نفسه ليشرح غامضه . وهذا يدلُّ على انه اقدر من ابن رشد في هذا الشان واحق منه بالثقة فيه لان ابن رشد كان يجهل اللغة اليونانية وانما قرأ فلسفة اريسطو في الكتب العربية التي ترجمها النساطرة والسريان قبله كما ذكرنا في ترجمته . ولذلك اخطأ في عدة مواضع فيها . وقد ذكر رنان في كتابه هذا الخطأ . ومنه نستنتج امراً جديراً بالاعتبار وهو انه اذا وجبت الثقة بفلسفة اريسطو التي نقلها ابن رشد وشرحها مع عدم معرفته باللغة اليونانية فانها واجبة ايضاً فيما يختص بفلسفة ابن رشد التي ينقلها الافرنج خصوصاً متى كانوا عالمين باللاتينية والعبرانية واليونانية والعربية

﴿ الاعتراض الثالث ﴾ وهذا القول يسوقنا الى الاعتراض الثالث وهو قول الاستاذ ان ما ذكرته الجامعة عن « العقول » لا ينطبق على مذاهب الفلاسفة فيها وذكره ان العقل الاول ليس كما ذكرت الجامعة بل هو الذي صدر عنه الفلك التاسع المسمى عندهم بالفلك الاطلس وان العقل التاسع صدر عنه فلك القمر ونفسه والعقل العاشر وهو المسمى عندهم العقل الفعال وعن هذا العقل صدرت المادة العنصرية الخ . ففيه نقول

خطاء العرب في مسالة العقول

ان ما ذكره الاستاذ عن « العقول » ليس في شيء من آراء الفلاسفة ولا فلسفة

(١) لم ننشر هنا هذه الشهادات العديدة لاننا ابقيناها الى الجزء القادم للاسهاب في هذا الموضوع زيادة في شرح فلسفة اريسطو وابن رشد التي توجهت اليها الآن انظار جميع القراء

اريسطو كما قال وانما هو من آراء « فلاسفة العرب » دون سواهم . وسبب هذا الخطاء الغريب الذي وقع فيه فلاسفة العرب حتى انهم جعلوا للاجرام السماوية « نفوساً مفارقة لها ولها تعلق باجسادها كتعلق انفسنا بابداننا » امران : الاول ان العلم كان يومئذ يجهل ما اكتشفه نيوتن بعد ذلك من وحدة النظام في الفضاء اي ان كل الكائنات والاجرام السابحة فيه هي كون واحد محكوم بنواميس ثابتة وهذه النواميس متشابهة في هذا العالم وفي اقصى العوالم . وبناء على جهل العرب يومئذ هذه الحقيقة وضعوا للاجرام افلاكاً خصوصية مستقلة وجعلوا لها عقولاً فقالوا ان هذا الفلك صدر عن العقل التاسع وذاك عن العقل الاول وهلم جرّا . والامر الثاني انهم اخطئوا في فهم عبارة وردت في كلام اريسطو وعليها بنوا مذهبهم في العقول . ولبيان ذلك نقول

لما تناول العرب فلسفة اريسطو وجدوا انه يعتقد بخالق متصل بالكون يديره ويدبّره . فرغبةً في تنزيه الخالق عن الاتصال بالكون اتصالاً يجعله مقيداً وينفي الاختيار عنه قالوا ان ما يسميه اريسطو خالقاً هو « العقل الاول » الذي تصدر عنه الحركة والقوة للعوالم وهذا العقل الاول متصل بالكون من جهة ليفيض عليه القوة ومتصل بالخالق من جهة اخرى ليستمدّ منه . فكانه واسطة بينهما . وهذا معنى قولنا في الجزء السابق « اما العقل الاول الذي منه قوة الاجرام وحركتها فهو في قلب هذه الدوائر » وايضاً « وبناء على ذلك لا يكون للكون اتصال بالخالق مباشرة وانما هذا الاتصال للعقل الاول وحده »

وبعد تقرير العرب ذلك رأوا في كتاب لاريسطو في ما وراء الطبيعة هذه العبارة « لقد ورد في اقوال الاقدمين في سياق اسطورة من الاساطير ان الاجرام السماوية آلهة وان الالوهية تشمل الطبيعة كلها . فاذا جردنا هذا القول من ثوبه الخرافي ونظرنا الى ما تحته من المعنى الدقيق الذي مآله ان العقول الاولى التي خلقت الكون هي آلهة امكننا ان نقول ان ذلك القول في غاية الصواب »

فيظهر ان هذه العبارة اصابت هوىً في نفوس فلاسفة العرب لرغبتهم في تنزيه الخالق كما تقدم او انهم لم يفهموها فهماً شعرياً تصورياً كما وردت في كلام اريسطو ولذلك جعلوا للاجرام السماوية عقولاً ونفوساً متعلقة بها . فكانها وزراء تساعد العقل الاول . وقد روى الذهبي في سيرة الخليفة يعقوب المنصور انه وُجد بخط ابن رشد على بعض تلاخيصه هذه العبارة (وجدوا ان الزهرة « الجرم السماوي » احد الالهة) فكان ذلك سبباً من اسباب نكبته . ومنه يظهر ان ابن رشد قد طاوع فلاسفة العرب في مسالة

العقول كما ذكرنا ذلك في الجزء الماضي

اما فلاسفة العصر فانهم يستغربون وجود تلك العبارة في كتاب اريسطو لان مبادىء اريسطو بعيدة من معناها · ولذلك يقولون ان احد النساخ زورها ودسها فيه · فكانت سبباً في تأليه الاجرام ونسبة العقول اليها · وهذا لا يدخل في فلسفة اريسطو قطعياً

خوف الكنيسة -- اما قول الاستاذ «ان راي ابن رشد هو الذي زعزع طمأنينة الكنيسة في ذلك القرن وافزع القابضين على مفاتيح القلوب بذلك الوقت الواقفين على ابوابها ياذنون لما شاءوا من العقائد والافكار ان يدخل فيها ويطردون ما شاءوا » فنرد عليه بان الذي زعزع طمأنينة الكنيسة يومئذ هو ما كانوا يروونه عن ابن رشد لا رأيه نفسه · فقد قام قبل تلامذة ابن رشد كثيرون من الادباء في ايطاليا وفرنسا واخذوا في مقاومة الديانة المسيحية · منهم معلم في ايطاليا كان يقول لتلامذته ان كتب اليونان والرومان تتضمن من الحقائق اكثر مما تتضمنه الكتب المسيحية منها · وانما الذي اخاف المسيحيين في ذلك الزمن وجعلهم يعتبرون ابن رشد بمثابة غول هائل قول بعضهم عنه انه كتب كتاباً عنوانه « الغشاشون الثلاثة » يعني اصحاب الشرائع الثلاث اليهودية والاسلامية والمسيحية · وبعضهم يقول انه قرأ هذا الكتاب باللغة العربية ولذلك تحسر رنان لانه لم يجده · وهم ينسبون لابن رشد في الاسلام والنصرانية واليهودية والهندية اقوالاً ترتعد لها فرائص اصحاب هذه الاديان · هذا ما اخاف المسيحية يومئذ لا رايه الفلسفي · ولا ريب عندنا انه يخيف الاستاذ ايضاً وجميع الائمة في كل دين · ولكن من حسن الحظ ان تلك الروايات كانت مكذوبة على الفيلسوف الحكيم

﴿ الامور الجزئية ﴾

هذا راينا في ما ردّ به الاستاذ على الجامعة في الامور الكلية · بقيت هنالك امور جزئية تنحصر في خمسة · وهي (اولاً) ان الجامعة قالت « حدوث المادة اي وجودها بخلق خالق » والاستاذ يقول « ان الحدوث معناه الايجاد وكون المادة صادرة عن موجد لم يختلف فيه المتكلم والفيلسوف الالهي » نقول في قواميس اللغة حدث نقيض قدم والقديم في اصطلاح الفلاسفة هو الازلي الذي لا بداية له · فالحديث هو ما كان ذا بداية اي موجوداً بخلق خالق لا موجوداً بذاته منذ الازل (ثانياً) قال الاستاذ « ان الافتراض ما لا وجود له » وقد رجعنا الى قواميس اللغة ايضاً فوجدنا « فرض الشيء تصوره او عينه »

ومنه الفرض والافتراض والمفروض في باب الخطأين في علم الحساب · فالمقصود من قولنا « ان المادة الاولى ضرب من الافتراض لا بدّ منه » هو ان الفلاسفة يتصورون وجود المادة الاولى تصورًا لتعليل الخلق وان كانوا لا يستطيعون اقامة الدليل على وجودها (ثالثًا) استغرب الاستاذ وضع الجامعة عنوان « طريق الاتصال » فوق صفحة موضوعها اتصال الانسان بالخالق مع انه لا موضع لهذا الاستغراب اذ جاء في اول سطر تحت العنوان ما نصه « وان قيل ما هي علاقة الانسان بالخالق الخ » ومن ذلك يُعرف موضوع الكلام والعنوان من اول سطر في تلك الصفحة (رابعًا) قوله « ان ما قاله ارسطو في ذلك الكتاب « الفصل الثالث من كتابه النفس » معروف مشهور) يريد الاستاذ بذلك نفي ما اسندته الجامعة الى هذا الكتاب مما اخذه ابن رشد عنه فيما يختص باتصال الانسان بالخالق والعقل الفاعل والمنفعل ؛ والحال ان رنان قد افرد فصلاً خاصًا في كتابه الذي تقدم ذكره لهذا البحث وشرحه شرحًا وافيًا مستعينًا بكلمات ارسطو اليونانية نفسها ونحن نعيد قولنا ان هذا الكتاب عندنا تحت امر الاستاذ (خامسًا)قال الاستاذ « قد عرفت من هذا ان اتصال النفس بالعقل الفعال ليس معناه الفناء فيه او الاندغام كما عرفته الجامعة» فنحن نقول ان الجامعة لم تقل ان « الاتصال » معناه الفناء في الله او الدخول فيه (سبحانه وتعالى) فان هذا القول يقوله المتصوفة لا الفلاسفة · وانما معنى الاتصال ما ذكرناه هناك اي معرفة الله تعالى حق معرفته والوصول اليه بالفكر عن طريق العلم لا عن طريق الصلاة كما يُفهم من سياق الكلام عند اول نظر

الخاتمة

والحاصل من كل ما تقدم ان المتكلمين الاصليين يُنكرون الاسباب كما يفهمها الفلاسفة · وان ابن رشد يرى في خلق العالم واتصال الخالق به وبالانسان وخلود النفس آراء مناقضة لكل الاديان · والا فاذا كان المتكلمون لا يُنكرون الاسباب كما يفهمها ابن رشد وكان مذهبه الهيًا مليًا كما قال الاستاذ وهو يعتقد بالعقاب والثواب كما يفهمها العامة على ما ذكرناه في الجزء الماضي — فما سبب الخلاف بينهم ولماذا اضطهدوه وكفروه · لماذا سماه الخليفة المنصور « معطلاً وملحدًا » في المنشور الرسمي الذي كتبه كاتبه ابن عياش ونشره في الاندلس والمغرب للتحذير من فلسفة الفيلسوف · وما معنى كلمة « المعطل والملحد » هنا أليس معناها الكفر · ثم الم يطالع الاستاذ ما نقله الانصاري وابن ابي اصيبعة وغيرهما من القصائد التي نظمها يومئذ شعراء الاندلس في ذم ابن رشد ونسبة الكفر

والزندقة اليه . فهذا برهان رسمي تاريخي لا يُردُّ على ان مبادىء ابن رشد لا تنطبق على مبادىء الدين الاسلامي خلافاً لما ذكره الاستاذ . اللهم الا ان تلطف هذه المبادىء وتخفف بان يحذف منها كل مالا ينطبق على الدين كما كان يصنع تلامذته المسلمون في الاندلس بعد وفاته . غير اننا نرى ان الفيلسوف الجليل لا يرضى عن ذلك اذا درى به من مكانه الابدي . ذلك لانه صرف حياته وبذل النفس والنفيس في تاييد الفلسفة والبرهان فكيف يستحسن انكار ما صرف حياته في تاييده . وقد كان مبدأه في ذلك تطبيق الدين على العلم لا العلم على الدين . اي انه كان يجعل الدين تابعاً للعلم لا العلم تابعاً للدين . والدليل على ذلك وضعه في كتابه « فصل المقال » هذه القاعدة الكبرى « نحن نقطع قطعاً ان كل ما ادى اليه البرهان وخالفه ظاهر الشرع ان ذلك الظاهر يقبل التاويل على قانون التاويل العربي » — فكيف يجوز حذف شيء من ذلك « البرهان » الذي نصبه الفيلسوف في ارض الاندلس كراية تلتف حولها العقول لمحاربة الاباطيل

بقيت لنا كلمة نسوقها الى رصيفنا الفاضل منشىء المنار المغرم « بالدفاع عن ائمة المسلمين واظهار الفرق بين الحق والباطل » وكلمتنا هذه هي الشكر له لانه تنازل عن الدفاع الى فضيلة الاستاذ المحترم كما قال في صدر مجلته . وبذلك احسن الى اللغة العربية وقرائها لانه مكّنهم من قراءة مقالة فلسفية بليغة لا يكتبها قلم غير قلم الاستاذ في هذا الزمان . واحسن الى نفسه بان كفاها مشقة الخوض في موضوع فلسفي صعب لم يتعود الخوض فيه وهو فوق طاقته . وان رام الرصيف تحقيق ما نذكره له هنا من ان هذا الامر فوق طاقته لانه يقتضي درساً لم يدرسه وبراءة من كل هوى غير هوى الحقيقة المجرَّدة فليقابل قوله في مقدمته بقول الاستاذ في مقدمته فيظهر له حينئذ ان بين القولين ما بين العلم الذي لم ينضج بعد وبين العلم الناضج المقرون بالنزاهة والكمال . ولعلَّ الرصيف لا يعتب لهذا المقال فان الحق اولى ان يُقال وتلك المقدمة لا يخرج منها الا هذه النتيجة



آثار الشرق القديمة

ننشر في هذا الباب ما انطوى ذكره من آثار الشرق ليقف الابناء على آثار الاباء وتاريخهم فان في ذلك عبرة وفائدة

سوريا حلقة التمدن

الساميون ممدنو العالم · راي جديد في الفينيقيين وشعر هوميروس · الاوديسة اعلان تجاري · انشقاق النساطرة (الكلدانيين اليوم) عن المسيحيين واحتماؤهم بالاسلام كان نعمة للتمدن

جمع صاحب كتاب « التمدن الاسلامي » الذي صدر في الشهر الماضي (١) اسباب عظمة العرب واتساع فتوحهم في احد عشر سبباً وهي · نشاطهم وخفة احمالهم · اعتقادهم بالقضاء والقدر وان الانسان لا يموت الا اذا جاء اجله · مهارتهم في ركوب الخيل ورمي النبال · نبوغ رجال عظام في صدر الاسلام · صبرهم ومطاولتهم في الحرب · انجادهم بعضهم بعضاً · حفظهم خط الرجعة · واقعة اليرموك التي شددت عزائمهم · انقسام الروم والفرس يومئذ وفساد اخلاقهم · انحياز اليهود اليهم · عدلهم ورفقهم وزهدهم

وبديهيّ ان هنالك اسباباً اعظم من هذه الاسباب لم ينتبه جناب المؤلف اليها · منها مسالة التوحيد التي كانت كبرق خلب تخطف الابصار · ومنها (وهو اهمها كلها) « النفس الساميّة العربية » التي صاغتها عوامل بلاد العرب الطبيعية والغير الطبيعية · ولو ان امة غير امة العرب اجتمعت فيها كل الاسباب التي ذكرها المؤلف لما استطاعت ان تقوم بما قامت امة العرب به اذا لم تكن (ساميّة) · ولذلك قال رنان وجميع المستشرقين « ان النسل الذي صدر عنه الدين والحرية والنزاهة والاخلاص وتصورات النفس الغزلية انما هو نسل هنود اوربا والساميين · اما الساميون فهم جميع الشعوب التي كانت تتكلم بلغة من اللغات التي يسمونها سامية « وهي العربية والسريانية والعبرانية والارامية والكلدانية والاشورية والحميرية » فمن هذين النسلين (هنود اوربا والساميين) خرج تمدن العالم واديانه الراقية · اما هنود اوربا فقد كانت ثمار عقولهم تصورات رقيقة وحنانًا وعواطف جدية اي عواطف من الزم لوازم الاداب والدين ومع ذلك فان الدين لم يخرج منهم لانهم

(١) سنعود الى هذا الكتاب في الجزء القادم لنوفيه حقه

كانوا شديدي التمسك بتقاليدهم الدينية القديمة . وانما خرج من الساميين الذين كان لهم في ذلك فضل عظيم على الانسانية . فالذين اعدوا اذاً سبيل الدين للانسانية في العالم هم اولئك البدو الذين كانوا سارحين في بلاد المشرق تحت الخيام والاطناب بعيدين عن فساد العالم واضطراباته » (يعني رنان بذلك القبائل الاسرائيلية التي خرجت منها الديانة اليهودية والديانة المسيحية والقبائل العربية التي خرجت منها الديانة الاسلامية)

نقول وكما ان الساميين (اي الشرقيين في عرفنا اليوم) كان لهم فضل عظيم على الانسانية من حيث خروج الاديان منهم كذلك كان لهم فضل عظيم عليها من حيث تعزيز الصناعة والتجارة وانتشار الفنون والمعارف . ولا ريب ان القارىء قد ادرك من هذا القول اننا لانعني به احداً غير الفينيقيين

والذي اخطر هذا الموضوع في بالنا في هذا الشهر كتاب علمي كبير نشره العالم الفرنسوي فيكتور برار وعنوانه « الفينيقيون والاوديسه » وقد قصد به الكاتب امرين : الاول تايبد ما قاله سترابون من ان هوميروس الشاعر اليوناني المشهور اعتمد على الفينيقيين في وصف البلاد الخارجية التي وصفها في قصيدته (الاوديسه) . فهم اذاً اساتذته . والثاني ان حوادث (الاوديسه) المبنيَّة على نكبات البطل اليوناني عولس ابي تليماك بعد خروجه من جزيرة كاليبسو ليست بحوادث خرافية . وقد ذكر المؤلف انه اكتشف البلاد التي حدثت فيها تلك النكبات ونشر رسومها

اما الامر الاول فيوءيده المؤلف باقامة عدة ادلة على ان الفينيقيين هم الذين مدَّنوا اليونان وعلى الخصوص جهات الارخبيل . وذلك ان قرصان اليونان كانوا يخطفون الفينيقيين اي سكان صور وصيداء وغيرهما من الثغور الفينيقية السورية وياخذونهم الى بلادهم فينشرون فيها الميل الى الفنون والتجارة . واليهم اي الى هوءلاء الاسرى الذين نبغوا في اليونان وعاشوا فيها ينسب المؤلف نفائس الفنون اليونانية التي ظهرت في النهضة اليونانية . وعلى ذلك فان فينيقية او سوريا تكون الوصلة الكبرى بين التمدن القديم والتمدن اليوناني الذي تلاه . بل انها تكون استاذ اليونان واصل نهضتها

ولا يخفى ان هذا القول لا يُرضي انصار التمدن اليوناني لانه ينفي عن النفس اليونانية صفة الابداع ولذلك اكثروا من الصياح بالمؤلف واستهزءوا به . ولكن الصياح والاستهزاء لا ينقضان الدليل والبرهان

واما اثبات صحة الحوادث التي نسبها هوميروس الى عولس في الاوديسه فلسنا في صدده

الآن. ونكتفي بان نقول ان المؤلف ذكر في كتابه ان جزيرة الالاهة كاليبسو التي سافر منها عواس هي جزيرة واقعة في المدخل الشرقي لجبل طارق وتُدعى اليوم جزيرة (بريجيل) وان الشاطىء الذي قُذف عليه عواس بعد سفره منها هو شاطىء جزيرة كورفو في بلاد اليونان. وقد وصف المؤلف مواقع هذه الجزيرة التي زارها بنفسه وصفاً ينطبق على وصف هوميروس

ولكن اذا ثبت ان هوميروس لم يكن قادراً من تلقاء نفسه على وصف البلاد البعيدة التي وصفها وانه اقتبس وصفها من الفينيقيين الذين كانوا يعيشون في بلاد اليونان بقي علينا ان نعلم السبب الذي اوجب على الفينيقيين تعليمه اياه وجعله يرضى بنظمه . فنقول ان هنالك واحداً من ثلاثة ؟ . فاما ان هوميروس اراد بذلك خدمة بني جنسه اليونان وافادتهم بمعلوماته الجديدة . واما انه اراد باغراء من الفينيقيين تحذير قومه اليونان من اخطار السفر التي اكثر من ذكرها ووصفها في قصيدته صرفاً لهم عن البحر ليبقى الفينيقيون منفردين فيه فلا يزاحمهم اليونان عليه . واما ان الفينيقيين راموا اتخاذ شعره البليغ بمثابة « اعلان » لبضائعهم وفضائلهم. وفي هذه الحالة تكون الاوديسه — تلك القصيدة البليغة السامية التي يقتبس منها شعراء الافرنج افكارهم واساليبهم : عبارة عن اعلان تجاري. و يكون الفينيقيون اوّل من اخترع هذه الاعلانات البليغة التي كثرت في هذا الزمان

واذ ذكرنا الحلقة الفينيقية التي ربطت التمدن القديم بالتمدن اليوناني وكانت اساساً له فاننا نذكر معها مدنية اخرى كانت سوريا حلقة لها ايضاً . واليك البيان

لما دبّ سوس الفناء في التمدن اليوناني والروماني على اثر الانقسامات والمشاحنات الدينية التي قامت بين اهله قامت في العالم دولة جديدة لتجديد شباب العالم وهي دولة العرب. فقيامها كان طبقاً للنظام الازلي الذي تديره اليد الازلية . وكان روم القسطنطينية وروم رومه في تلك الازمان في نزاع شديد بشان طبيعتي المسيح الالهية والبشرية . ففي اوائل القرن الخامس اظهر نسطوريوس بطريرك القسطنطينية رايه في ان طبيعة المسيح البشرية منفصلة عن طبيعته الالهية ولذلك لا يجوز تسمية العذراء مريم والدة الاله بل يجب ان تُدعى « والدة يسوع » فعارضه في ذلك البطريرك الاسكندري واسقف رومه لاغراض خصوصية غير الاغراض الدينية مما يطول شرحه . ثم اجتمع مجمع في افسس وقرر تكفير نسطوريوس وعزله من غير ان يحضر هذا المجمع اساقفة سوريا والشرق لانهم كانوا من حزب نسطوريوس وكان انصار البطريرك الاسكندري يخشون من ارتفاع كلمتهم . ولما

عُزل نسطوريوس ونُفي الى وطنه سوريا تفرق حزبه السوري في انحاء آسيا كلها وراح رجاله ينشرون معارفهم اليونانية وعقائدهم في جميع الاقطار فبلغوا الهند والصين وبلاد العرب . وقد عرف صاحب الشريعة الاسلامية وابو بكر الصديق بعضاً منهم

ولما قويت شوكة العرب كانوا يحمون هؤلاء النساطرة لان اعتقادهم بالسيد المسيح كان قريباً من اعتقاد المسلمين به من بعض الوجوه . وربما كان يومئذ بين الاعتقادين شيء من العلاقة . فكان النساطرة يستخرجون علوم اليونان ومعارفهم وهم آمنون في حمى الاسلام وراتعون في قصور خلفائه . وهم الذين كانوا اول من ترجم الفلسفة اليونانية الى اللغة العربية . وهم الذين انشئوا في مدينة ادسيس الواقعة في ما بين النهرين المدرسة المشهورة التي خرج منها العلماء للنهضة البغدادية . وقد ذكر مؤرخو العرب هؤلاء النساطرة فقالوا انهم قوم يحكمون في كل شيء بعقولهم ويفحصون كل الاراء بانفسهم . وقد ذكرنا في ترجمة ابن رشد ان هذا الفيلسوف لم يعرف فلسفة اريسطو الا من الكتب التي ترجموها . فكانه كُتب لسوريا ان تكون حلقة ثانية بين مدنية اليونان ومدنية العرب كما كانت حلقة بين المدنية القديمة والمدنية اليونانية

باب التقريظ والانتقاد

المقتطف وروايات الجامعة

حق علينا الشكر لحضرات الرصفاء الذين ذكروا بالثناء روايات الجامعة وان كانت لا تستحقه . الا اننا نرجو من رصيفنا المقتطف المفضال ان يسمح لنا بالرد على اعتراض اعترضه على امر ورد في هذه الروايات . فقد قلنا في حاشية في اثناء الكلام عن التنويم المغنطيسي فيها وما ينسبه اليه اهله من المدهشات ما نصه « كم من الاشياء يجهلها الانسان . فليس من العقل ان ينكرها لانه يجهلها » وعربنا حادثة خيالية ذكرها ديماس في الرواية وهي ان الدكتور جيلبار نوّم الكونتس اندري فرات وهي نائمة في قصر الملك صندوقة

كانت موضوعة في قصرها — فقال رصيفنا المقتطف ان العالم معذور اذا انكر ذلك لانه لا يسلّم الا بما يقع تحت حواسه وتكرر تجربته مرارًا امام شهود من العلماء

فنحن نري ان هذا القول في محله اذا كان الغرض منه دحض قول القائلين بان النائم نومًا مغنطيسيًا لا يرى الاشياء الغائبة عن بصره • واما اذا كان الغرض منه اظهار ان موءلفي الروايات لا يجوز لهم ان يتجاوزوا حدود العلم في ما يكتبونه فكثيرون من مشاهير موءلفي الروايات يردّونه • ذلك لانهم فريقان : فريق يحرّم ذلك وفريق يحلله • ومن المحللين شكسبير نفسه فانه جعل ابا هملت يظهر بعد مقتله لابنه « في ملعب التمثيل لا في المنام » ويرشده الى قاتله • فهل ان العلم يسلّم بهذا ويقبله ؟ وبناء على ذلك يكون موءلفو الروايات شبيهين بالشعراء الذين قيل فيهم انهم يتبعهم الغاوون وفي كل واد يهيمون و يقولون ما لا يفعلون • وما ذلك الا لانهم يحاولون سبق الفكر البشرى بما يتصورونه و يصوّرونه من العوالم الخيالية التي يخلقونها • فاحيانًا يصيبون كما اصاب جول فرن في وصفه المناطيد والغواصات قبل اختراعها واحيانًا يخطئون • واحيانًا يتعمدون الخطأ تزويقًا للكلام والتماسًا للعجيب الغريب ارضاء لطلابه

واما اذا كان اعتراض الرصيف الكريم هو على قول الملخص العربي في الحاشية «كم من الاشياء يجهلها الانسان فليس من العقل ان ينكرها لانه يجهلها » لا على الموءلف ديماس نفسه فاننا نقول في ذلك :

الباحثون اليوم فريقان : فريق معطل لا يسلّم بشيء خارجًا عن دائرة المحسوسات مطلقًا ولا يعرف غير تاثير المادة في المادة • وفريق يبقي في قصر العقل والعلم والمادة كوة مفتوحة على فضاء الابدية المظلم لعله يرد منها شيء جديد • وهذا الفريق يعتقد بوجود حقائق ادبية وقلبية اعتقاده بوجود حقائق عقلية • والجامعة من الفريق الثاني ولذلك تكره « انكار كل ما لا يقوم الدليل العقلي عليه » لان هذا الانكار قد يوصل "الآن" الشرق وسكانه الى ما لا نروم ذكره • ونحن نذكر ان رصيفنا المقتطف هو من اصحاب هذا الراي ايضًا • فقد اهتم منذ عدة سنوات اهتمامًا شديدًا بالمسائل الخيالية كالتنويم المغنطيسي وقراءة الافكار وانتقال الافكار وغير ذلك من المباحث التي يعدّها اليوم العلماء الذين اشار اليهم الرصيف الكريم من قبيل الاوهام والاحلام • فقد سُئل المقتطف في الجزء الرابع من السنة الثالثة عشرة الصفحة ٢٧٦ (هل تقرر امكان قراءة الافكار) فاجاب " ان اشهر قارئي الافكار كمبرلند والارجح انه صادق في اقواله وهو نفسه قد نسب قراءته للافكار

الى حركة عضلية خفيفة في من يقرأ له افكاره يشعر بها كمبرلند ولا يشعر بها صاحبها والمرجح عندنا ان قراءة الافكار صحيحة ولكن تعليلها غير معروف » وفي الصفحة ٣٤٩ من السنة السابعة عشرة على المقتطف قراءة كمبرلند افكار غيره بقوله (والهادي له في كل ذلك مطاوعة يد الشخص المضمر او مقاومتها والشخص نفسه غير شاعر بذلك . وهنا تقوم مزية المستر كمبرلند . فانه يشعر بهذه المطاوعة او المقاومة مع ان صاحبها لا يشعر بها . وقد علمنا ان في بيروت شاباً ظهرت فيه هذه القوة وهو يستدل بها على افكار غيره كما يستدل كمبرلند) نقول وكمبرلند هذا قد ثبت اليوم لدى علماء اوربا ان جميع ما صنعه من باب قراءة الافكار كان تدجيلاً وتضليلاً وشعوذة

وفي الصفحة ٧٩٨ من الجلد المذكور قال الرصيف الكريم في مقالة عن الماديين والروحيين (وعليه نحكم بوجود النفس او الروح لتعليل ما لا يعلل بغيرها كالاثير ولو لم نستطع ان نقيم البرهان العلمي على وجودها كما لا نستطيع ان نقيمه على وجوده) وفي الصفحة ٣٨٧ من مقالة عنوانها « تدين العجماوات » ما نصه (وهنا يقف العلم الطبيعي لانه لا يستطيع ان يثبت هذا الامر (اي تدين الحيوان) اثباتاً خالياً من كل ريب ولا ان ينقضه نقضاً تاماً) وفي الصفحة ٦٨٧ من السنة الثامنة عشرة فصل في غرائب الاتفاق هذه خاتمته « حبذا لو انتبه القراء الى هذا الموضوع وكتبوا ما يقع لهم من غرائب الاتفاق وتحرَّوا الدقة التامة فيه لعله يكون سبباً لاكتشاف حقيقة غير معروفة حتى الآن)

وفي الصفحة ١٥١ من السنة السابعة عشرة فصل عنوانه « انتقال الافكار » وموضوعه شبيه بموضوع حادثة اندري . وفيه ما نصه « ذكرنا غير مرة ان زوجة الاستاذ سدجوك العالم النفسي تبحث مثله في « المسائل النفسية » كاسباب الاحلام والهواجس والخيالات والتخيلات والنوم المغنطيسي » وفي هذه المقالة يقول (لو كانت معرفتها متوقفة على الصدفة لما عرفت اكثر من رقعة واحدة) وبعده بعدة اسطر (وذلك مما يعسر تعليله بالصدفة والاتفاق) نقول ولا ريب انه اذا كان التنويم المغنطيسي من « المسائل النفسية » فحادثة اندري ممكنة بلا جدال لان انصار التنويم واستحضار الارواح يقولون ان النفس هي التي تصنع ذلك الصنع

فكل هذه امور تدل على ان الرصيف الكريم من الفريق الثاني الذي يبقي في قصره العلمي كوة مفتوحة على الفضاء الابدي المظلم طبقاً لقول ابن الاثير : « ان ما اجهل اكثر مما اعلم » ولذلك استغربت الجامعة انكاره عليها تركها كوة مفتوحة على ذلك الفضاء .

اللهم الا ان يكون الرسوخ في العلم قد غير راي الاستاذ . وحينئذ نخشى ان تقوى بذلك حجة انصار الاوهام والاباطيل

﴿ كتاب حاضر المصريين ﴾

تاليف جناب محمد افندي عمر في مصلحة البوسطة المصرية

« حاضر المصريين او سر تاخرهم » كتاب ضخم لمؤلفه جناب محمد افندي عمر من مستخدمي البوسطة المصرية في العاصمة . وقد اهداه الى عطوفتلو مصطفى فهمي باشا رئيس النظار ونشر في صدره مقدمة بليغة من قلم حضرة المفضال عزتلو احمد بك فتحي زغلول . اما موضوع الكتاب فمعروف من عنوانه وهو ذكر حاضر مصر واسباب تاخرها . ولقد انصف الكاتب احياناً فاجاد في وصف هذه الاسباب واحياناً بالغ فيها واحياناً خرج عن حد الانصاف . اما حملته على الاغنياء وتعنيفه ابناءهم على الاسراف في المقامرات والمضاربات وغيرها فحملة لا ينكرها احد اذا كان لا يقصد بها اشخاصاً يعرفهم . وقد قلنا ذلك لانه شدَّد الوطأة كثيرًا على الاغنياء وابنائهم وخصوصاً على من خربت بيوتهم منهم ونسب اليهم انهم هم الذين خربوا بيوتهم بايديهم كانه يجهل ان في العالم كثيرين من الابالسة والاشرار الارذياء لا داب لهم الا التعلق على الاغنياء والوقوف في ابوابهم للغدر بهم وامتصاص دمائهم متى آنسوا غرة منهم

وهذا الكتاب لا تخلو مطالعته من فائدة للمصريين وغيرهم . وهو يدل على ما عاناه كاتبه في سبيل جمعه وطبعه مما يوجب له الشكر الجزيل . فعسى ان يهذبه في طبعة ثانية ويذكر الحسنات بازاء السيئات فان لكل امة في اوربا سيئات كالسيئات التي عددها في كتابه بل افظع منها ومع ذلك فتلك الامم عظيمة راقية لما فيها من الحسنات في طبقاتها العالية والدانية

﴿ تاثير النساء في الارتقاء ﴾

بقلم جناب جرجي افندي نقولا باز

القى جناب جرجي افندي نقولا باز خطبة في احدى جلسات جمعية شمس البر في بيروت عنوانها « تاثير النساء في الارتقاء » ثم طبعها على حدة بعد نشرها في رصيفتنا جريدة المحبة الغراء . ونحن نتمنى ان يطالع الآباء والامهات هذه الخطبة مرارًا لما فيها من الحث على تربية البنات وبيان منزلة المراة في المجتمع البشري ولذلك نثني على كاتبها اجمل ثناء

ثمن النسخة الواحدة خمسة غروش صاغ وفيها ١٣ رسماً

بولس وفرجيني

وهي الحلقة الاولى من (مشروع) مجلة الجامعة

ومداره على نقل

اشهر موءلفات الافرنج

الى اللغة العربية تلخيصاً

بقلم

فرح انطون

منشىء مجلة « الجامعة »



برناردين موءلف (بولس وفرجيني)



بولس وفرجيني

الاسكندرية في ١٠ سبتمبر (ايلول) سنة ١٩٠٢

حوادث هذه الرواية حقيقية لا خيالية كما تجد في الجزء العاشر من الجامعة

مشروع الجامعة الجديد

في اللغات الاوربية مؤلفات وضعها حكماؤهم وفلاستهم وعلماؤهم لانارة الاذهان وتثقيف العقول واصلاح الاخلاق وهي اشهر موءلفاتهم . ولقد كان لهذه المؤلفات النفيسة التاثير العظيم في تلك الامم لانها هي التي كوّنت اخلاقها وصاغت نفوسها . فنقلها الى اللغة العربية امر واجب لنشر ما فيها من (الجمال والخير والحق) لا سيما وان موضوعها غير مخصوص بامم الافرنج بل هو فلسفي علمي ادبي يصح اطلاقه على جميع بني الانسان

وقد شرعت (الجامعة) منذ هذا الشهر في نقل بعض هذه المؤلفات النفيسة التي تحتاج لغتنا اليها . فهي تُصدر في كل شهر كتاباً منها وبذلك تستطيع ان تنقل الى اللغة العربية في كل عام ١٠ كتب نفيسة او ١٢ كتاباً كان يجب ان تكون قد نقلت اليها منذ ازمان . وقد جعلت ابتداء هذا المشروع رواية فلسفية ادبية طبيعية عنوانها « بولس وفرجيني » وهي من تاليف الفيلسوف الادبي الشهير برناردين دي سان بيير . وهي افضل كتاب ادبي كُتب في عصر المؤلف . وقد قال شارحو كتبه ان هذه الرواية وضعت برناردين في درجة هوميروس وفرجيل وتاسيت فصار بها خالداً مثلهم . ولما نُشرت هذه الرواية في باريز (عام ١٧٨٩ قام لها عالم الادب وقعد وما قرأها احد من الجنسين الا اذرف لها دموعاً سخينة ولم يولد غلام في ذلك العام الا وسمي « بولس » ولا ابنة الا وسميت « فرجيني» وكان نابوليون الاول كلما لقي موءلفها يساله : متى تكتب لنا يامسيو برناردين كتاباً كبولس وفرجيني او كالكوخ الهندي . اما ناشروا الكتب فانهم زوروا طبعها ٣٠٠ مرة اي انهم طبعوها ٣٠٠ مرة من غير اذن المولف ليستطيعوا اجابة الجمهور الذي كان يطلبها من كل صوب . فعسى ان يكون لها في اللغة العربية شيء من الاقبال الذي كان لها في لغتها لاننا بذلنا الجهد لجعلها — كتابةً وطبعاً وورقاً وتصويرًا — مساوية للنسخة الاصلية

هذه هي الحلقة الاولى من مشروع الجامعة وقد جعلناها هدية للامهات والعذارى في الشرق فنرجو ان يقبلنها و يستفدن منها . وفي الشهر الآتي تصدر الحلقة الثانية لموءلف آخر طبقت شهرته الخافقين . وهكذا على التتابع . ولا ريب عندنا في ان قراء اللغة العربية سيرتاحون الى هذا المشروع و ينشطونه تنشيطاً يمكّن الجامعة من توسيعه في المستقبل توسيعاً يتجاوز كل حد كما ذكرت ذلك في مقدمة طويلة في صدر الجزء التاسع الذي صدر في هذا الشهر وينسيها ما تعانيه في سبيله . وعلى الله الاتكال في كل حال

بولس وفرجيني

﴿ وهي اشهر الروايات الادبية واشرفها ﴾

هدية من (الجامعة) الى كل ام وكل زوجة وكل عذراء في الشرق. ليرين فيها اسمى صورة للكمال والادب والمعيشة البريّة الطاهرة ويسمعن منها اشجى اصوات الفضيلة

١

قصة الشيخ

في الشاطىء الشرقي من «جزيرة دي فرنس» مدينة تُدعى «بور لويس» اي ثغر لويس وهي قائمة على سفح جبل يُدعى «المورن» ووراءه غابة واسعة تمتد الى اطراف الجزيرة وكان بين المدينة والجبل ارض فسيحة منبسطة بين الآكام والصخور يدل ظاهرها على انها كانت منذ مدة عامرة مزروعة . وكان يلذ لي الصعود من المدينة الى هذه الارض لاتمتع فيها بالهدوء السائد فيها واسمع منها تكسر امواج البحر على شاطىء الجزيرة وحفيف اشجار الغابة من وراء الجبل. وكان في وسط هذه الارض آثار كوخين بُني احدهما بجانب الآخر . ففي ذات يوم كنت جالساً بجانب هذين الكوخين امتع الطرف بمناظر الافق



الشيخ

البعيد واتامل في ما حولي واذا بشيخ قد مرّ بي وهو لابس ملابس الوطنيين وهي مؤلفة من رداء قصير و(كلسون) وفي يده عصا يتوكأ عليها . وكان شعره ابيض وهو مسترسل على كتفيه وفي وجهه دلائل المروءة والبساطة والصلاح . فلما دنا مني حيينه باحترام فرد

لي التحية وتامل فيَّ قليلاً ثم دنا وجلس بجانبي . فلما رأيته قد آنس بي خاطبته بقولي « هل تعرف ياعمّ لمن كان هذان الكوخان » فنظر الشيخ اليَّ وقال « كان هذان الكوخان يا بنيَّ لعائلتين فقيرتين عاشتا فيهما بهناء منذ عشرين عاماً . ولهما قصة مؤثرة ولكن منْ من الناس يهتم الآن باخبار افاضل البشر الذين يعيشون بهدوء وسلام في بعض زوايا البلاد . ان الناس لا يهتمون الا لتاريخ الملوك والعظماء الذي قلما يجدي نفعاً » فقلت حينئذ للشيخ : « بل قصَّ عليَّ ياعماه قصة هاتين العائلتين اذا كنتَ في سعة من الوقت . فانني مصغٍ اليك بكل جوانحي . واعلم ان الانسان مهما بلغ منه الفساد وسوء الحال فانه يبقى ميالاً لاستماع الكلام عن السعادة التي تنشأ عن الفضيلة والمعيشة في الطبيعة »

فامرَّ الشيخ حينئذ يده على جبينه كانه يجمع تذكاراته ثم اخذ يقصُّ عليَّ القصة التالية

٢

التجاء امرأتين الى الطبيعة فراراً من ظلم الناس

في سنة ١٧٢٦ قدم الى هذه الجزيرة شاب من نورمنديا يُدعى المسيو دي لاتور . وسبب قدومه انه طلب الرزق في فرنسا فلم يجد اليه سبيلاً فيها فانصرف عنها الى مستعمراتها . وكانت معه فتاة يحبها حباً شديداً وقد اقترن بها في السرّ ومن غير دوطة لان اهلها كانوا من النبلاء وقد عارضوا في اقترانها برجل لم يكن من طبقتها . ولما جاء دي لاتور بزوجته الى هذه الجزيرة تركها في هذه المدينة (بور لويس) ثم قصد مدغسكر ليبتاع منها بضعة من الزنوج ويعود بهم الى هنا لفلاحة الارض وزراعتها . وكان سفره الى مدغسكر في الشتاء فاصيب فيها بالحمى التي يسمونها الحمى الطاعونية وهي تدوم هنالك نصف سنة وتوفي بها . فاصبحت زوجته منذ ذلك الحين ارملة وكانت فوق ذلك حاملاً ولم تكن تملك غير زنجية تتخذها لحوائجها

ولكن مدام دي لا تور لم يضعف عزمها لهذه المصيبة التي نزلت بها . فعزمت ان تنفرد مع زنجيتها في قطعة ارض لتفلحاها وتزرعاها وتعيشا فيها من نتاجها . ولما عزمت هذا العزم تركت الاراضي الخصيبة في السهول وقصدت هذا الجبل . ذلك لان النفوس الحساسة المتالمة تطلب الانفراد دائماً لتخفي فيه احساسها والمها . ولكن العناية الالهية التي لا تتخلى عن مساعدتنا اذا لم نطلب غير الامور الضرورية لنا لم تلبث ان منحت مدام دي لا تور نعمة لا ينالها الانسان بالغنى والجاه : واريد بذلك صديقة فاضلة

فقد كان في هذا المكان حين قدوم مدام دي لاتور اليه سيدة كريمة حساسة تُدعى مرغريت . وكانت هذه السيدة من عائلة من مقاطعة بريتانيا وقد خدعها احد شبان النبلاء فوعدها بان يقترن بها ثم اخلف وعده وهجرها دون ان يهتم لها ولا للطفل الذي اصبحت حاملاً به . فلما وقعت هذه الفتاة التعيسة في هذه المصيبة الهائلة هجرت قريتها حفظاً لكرامة اهلها وسارت تقصد احدى المستعمرات لتخفي عارها فيها بعيدة عن القرية التي اضاعت بها انفس « دوطة » للفتاة الفقيرة اعني طيب الصيت وحسن الاحدوثة . ولما وصلت مرغريت الى هذه الجزيرة ابتاعت منها زنجياً كبير السن ببعض دراهم كانت معها ثم انفردت في هذا الجبل واقامت على فلاحة الارض وزراعتها

ولما قدمت مدام دي لاتور الى هذه الناحية وجدت فيها مرغريت وهي ترضع طفلاً لها . فسرَّت مدام دي لاتور بمصادفتها في هذه الجهات الموحشة رفيقة تؤنسها خصوصاً لان قصة الفتاتين كانت تكاد تكون واحدة . ولما قصت مدام دي لاتور على مرغريت قصتها تاثرت هذه وبكت . ثم قالت لها : « اما انا فقد كنت مستحقة تعاستي ايتها السيدة لانني اخطات . واما انتِ فانكِ كنتِ حكيمة عاقلة ومع ذلك فقد صرتِ تعيسة » ثم قدمت لها مرغريت كوخها وهي تبكي اي اقترحت عليها مساكنتها فيه . فقبلت مدام دي لا تور وسكنت معها

وكنتُ قد عرفت مرغريت قبل قدوم مدام دي لا تور لاني جارها وان كنت اسكن في الغابة وراء هذا الجبل . ذلك لان البشر في الخلاء يكونون جيران وان كانت الاحراش والجبال تفصلهم بعضهم عن بعض . والضيافةُ تعتبر عندهم واجباً مفروضاً . اما في المدن فربما عاش رجلان في شارع واحد او في منزل واحد دون ان يعرف احدهما الآخر

فلما دريت بقدوم مدام دي لاتور قصدتُ مرغريت لاسالها اذا كانت تحتاج اليَّ . فشاهدت عندها الرفيقة الجديدة وكانت على وشك الوضع . فقلت لهاتين السيدتين انه من الواجب لحفظ صحة الطفلين بناء كوخ آخر وكان غرضي من ذلك ايضاً اقتسام الارض لئلا ياتي احد ويشاركها فيها . فعهدتا اليَّ هذا الامر . فقسمتُ هذه الارض قسمين . قسم جعلتُ اوله من تلك الصخور العالية التي يكسوها الضباب ومنها يجري نبع صافٍ غزير ونهايته هذا الكوخ وقسم جعلت اوله هذا الكوخ ونهايته السهل المنبسط تحته . وكان القسم الاول علوياً والقسم الثاني سفلياً . ثم انني اقترعت على هذين القسمين بين السيدتين فكان القسم العلوي من نصيب مدام دي لاتور والقسم السفلي من نصيب مرغريت .

فسرت كل واحدة منهما بنصيبها . وبعد ذلك شرعتُ في بناء الكوخ الجديد . وكان كوخ مرغريت مبنياً في آخر القسم السفلي فجعلت كوخ مدام دي لا تور في آخر القسم العلوي ليكون الواحد بجانب الثاني . وقد ذهبت بنفسي الى الحرش والى شاطىء البحر لاجلب منهما مواد البناء للكوخين . وها قد مرَّ على ذلك اليوم عشرون عاماً ومع ذلك فان آثار الكوخين لا تزال ظاهرة للعيان . فكأنَّ طوارق الزمان التي تمحو آثار الممالك العظمى تحترم الآثار التي تقيمها الصداقة والصلاح في احضان الطبيعة

ولم اكد افرغ من بناء الكوخ الثاني حتى وضعتْ مدام دي لا تور طفلة . وبما انني كنت عراباً لابن مرغريت الذي كان يُدعى « بولس » فقد سالتني مدام دي لا تور ان اكون عراباً لابنتها ايضاً . وعهدتْ الى صديقتها مرغريت ان تسمي الطفلة . فسمتها مرغريت « فرجيني » تفاؤلاً بانها ستكون في المستقبل سيدة فاضلة ينطبق فيها الاسم على المسمى . وقد قالت حين تسميتها اياها « انها ستكون فاضلة وسعيدة معاً . لانني لم اعرف التعاسة الا منذ خرجت عن طريق الفضيلة »

وقد تقدم في ما مرَّ انه كان لمرغريت زنجي ولرفيقتها زنجية . فعند ولادة « فرجيني » اقترن هذان الزنجيان . وكانا شديدي الحب والاخلاص لسيدتيهما . وكان الرجل يدعى « دومينيك » وقد اخذ على نفسه زراعة الحقلين حقل مرغريت وحقل رفيقتها وغرس الاشجار فيهما . اما زوجته الزنجية فانها كانت تهتم بداخل الكوخين كاعداد الطعام وترتيب الشؤون وتربية بعض الدجاج وحمل ما فضل عن المنزلين من الاثمار والحبوب والبيض الى المدينة لبيعها فيها . وكان في المنزلين فوق ذلك عنزتان لتربيتهما مع الطفلين رغبة في لبنهما وكلب كبير الجثة ينام في الخارج ليحرس المكان تحت جنح الظلام

اما مرغريت وصديقتها مدام دي لاتور فقد كانتا تصرفان نهارهما في غزل القطن . وكانت حاجاتهما قليلة حتى انهما كانتا تمشيان حافيتين ولا تلبسان حذاء الا حين ذهابهما في يوم الاحد الى تلك الكنيسة القائمة هنالك . اما المدينة فلم تكونا تنزلان اليها الا قليلاً لان اهلها كانوا يتهكمون عليهما للبسهما ملابس مصنوعة من نسيج ثخين وارد من بنغال وهو ما يلبسه العبيد في هذه الجزيرة . ولذلك كانتا تعودان بسرعة من المدينة كلما ذهبتا اليها وتنسيان في هذا المكان المنفرد الذي كانتا تجدان فيه الحرية والنظافة والخيرات التي اخرجتاها من الارض بجدهما وتعبهما ما كانتا تلاقيانه في المدينة من خشونة الناس وتهكمهم وكانت حاجاتهما متشابهة وحالتهما متماثلة ولذلك كان كل شيء لديهما مشتركاً بينهما .



العائلتان مجتمعتان

وكان لهما ارادة واحدة ومصلحة واحدة ومائدة واحدة · وكانت احداهما لا تنادي الاخرى الا بهذا النداء الحلو : « يا اختي » او « يا صديقتي » · وكانت معيشتهما عيدًا دائمًا في هذا الاخاء وهذه الصداقة · واذا اتقدت يومًا في نفسيهما نار اقوى من نار الصداقة فقد كانت مبادئهما الدينية النقية واخلاقهما الطاهرة الشريفة تصرف تلك النار الى العالم الثاني · كلهيب يتطاير الى السماء منفصلاً عن الارض لنفاد المادة التي كان يتولد منها

وكانت صداقتهما تزداد من نظرهما الى طفليهما · وكانتا تتسليان بوضع الطفلين في الماء معًا حين غسل جسديهما فكانا يلعبان فيه ويضحكان · وكثيرًا ما كانتا تنيمانهما في سرير واحد فيتعانقان و يتضامان · وكانت الواحدة ترضع طفل الاخرى وهي تقول « سيكون لكل واحدة منا ولدان ولكل ولد منهما امان » واحيانًا بينما كانتا مكبتين على سريريهما ترضعانهما كانتا تمزحان وتتحادثان بعقد الزواج بينهما حين بلوغهما سن الشباب · غير انهما كانتا كلما افتكرتا في ذلك انقلب هزلها جدًا وملأ الحزن نفسيهما · ذلك لان الواحدة كانت ترى انها لم تقع في المصائب الا لاهمالها عقد الزواج والاخرى لانها خضعت لناموسه · الاولى رامت الصعود الى طبقة فوق طبقتها والثانية نزلت من طبقتها الى طبقة ادنى منها · ولكنهما كانتا تتعزيان عن ذلك بافتكارهما ان ولديهما سيكونان اهنأ بالاً منهما فيذوقان لذة السعادة والمساواة في هذه الارض البعيدة عن اوهام اوربا واخلاقها الفاسدة

٣

بولس وفرجيني في الصغر

وفي الحقيقة ان ما كان بين بولس وفرجيني من الالفة حتى في صغرهما امر يوجب الدهشة . فانه اذا بكى بولس او شكا من امر فقد كان كافياً لاسكاته ان تريه امه فرجيني وتدنيه منها . فحينئذ يبتسم بولس و يسكت كانه لم يبكِ ولم يشكُ من شيء . واذا تألمت فرجيني من طارئ، صرخ بولس في الحال منذراً بالمها . اما هي فقد كانت تكتم ألمها عند صراخه لئلا تزعجه . وكنت كلما اتيتُ الى هنا وجدتهما واقفين عاريي الجسم كعادة الاولاد في هذه البلاد وهما يمشيان باقدام مرتجفة لعدم مقدرتهما على المشي في اول عمرهما . وكانا يمشيان وهما آخذان بعضهما بايدي بعض كانهما شقيقان لا ينفصلان . واذا جنَّ الليل لم يقدر احد على الفصل بينهما ايضاً فينامان في فراش واحد متعانقين الوجه في الوجه والخد على الخد

وحين مقدرتهما على النطق والكلام كانت اول كلمة نطقا بها « اختي » و « اخي » . فان سن الصبا يعرف عواطف ارقّ من هذه الكلمة ولكنه لا يعرف كلاماً احلى منها . ولما نشئا قليلاً زادت الفتهما واشتد تعلقهما بعضهما ببعض لان تربيتهما المختلفة كانت تسوق صداقتهما الى حاجاتهما الغريزية المتبادلة . اما فرجيني فانها كانت تساعد الزنجية في كل ما له علاقة بتدبير المنزل واعداد الطعام . واما بولس فانه كان يساعد الزنجي في



تحت مظلة واحدة

زراعة الارض ويصحبه الى الحرش لقطع الحطب وفي يده فاس صغيرة . وكان اذا وجد في طريقه في الحرش زهرة جميلة او ثمرة جيدة او عش عصفور فقد كان يصعد اليه ولو كان في اعلى شجرة و يعود به الى رفيقته المحبوبة

وكل من عثر على احدهما في مكان فانه كان متيقناً انه يجد الآخر غير بعيد عنه ٠ وفي ذات يوم كنت نازلاً من احدى هذه القمم التي امامنا فشاهدتُ فرجيني في الحديقة تركض الى المنزل تحت المطر وقد رفعت « فسطانها » على راسها خوفاً من البلل. فقصدتها لمساعدتها على الوصول الى البيت ولكنني لما دنوت منها رايت انها لم تكن وحدها بل كان بولس معها تحت الفسطان وهما يسيران ضاحكين مسرورين من هذا الاختراع الذي كان يقيهما المطر ويضمهما تحت مظلة واحدة

وعلى ذلك فكل عنايتهما كانت مصروفة الى امرين ٠ الاول مساعدة بعضهما بعضاً والثاني ارضاء بعضهما بعضاً ٠ وكانا جاهلين اي انهما لم يكونا يعرفان القراءة والكتابة ولا يهتمان بما حدث قبلهما في الازمنة الماضية ٠ ذلك ان اهتمامهما كان مقصوراً على الارض التي كانا يعيشان عليها وكانا يحسبان انها الدنيا كلها ٠ وكانا لا يعرفان السرقة لان كل شيء كان مشتركاً بينهما ومباحاً لهما ٠ ولا الشراهة لان طعامهما كان بسيطاً وهما ياخذان منه ما ارادا ٠ ولا الكذب اذ لم يكن عليهما ضغط يضطرهما الى ستر امور تخالف ما يُطلب منهما القيام به ٠ ولم تُخفهما اماهما بتعليمهما ان الله يعاقب الاولاد الذين يعقون اهلهم عقاباً هائلاً ٠ ولا علمتاهما من الدين الا كل ما يحببه الى النفوس ويجعلها تُسرّ به وترتاح اليه بدلاً من ان تخاف منه ٠ ولذلك فان بولس وفرجيني اذا لم يذهبا الى الكنيسة ويصليان فيها صلوات طويلة فانهما في كل مكان يقيمان فيه : في البيت او في الحقل او في الحرش كانا يرفعان عيونهما وايديهما الى السماء بقلوب ملئها الحب والشكر للامين الفاضلتين اللتين تربيهما

٤

وصفهما في سن الفتوة

وهكذا صرف بولس وفرجيني زمن صباهما فكان هذا الزمن منهما بمثابة شفق يبشرهما بطلوع شمس السعادة عليهما في مستقبل العمر

وكانت بنية الولدين تنمو وتشتدُّ بغذاء سليم غزير ونفسهما تزداد اشراقاً بتربية لطيفة كانت تطبع على سحنتهما دلائل الطهارة والارتياح الباطني ٠ ولما بلغت فرجيني السنة الثانية عشرة كانت قامتها قد امتشقت وشعرها الاشقر الطويل قد كلل وجهها الجميل وعيناها الزرقاوان وشفتاها المرجانيتان صارت تسطع في وجهها سطعاناً يسحر الالباب ٠ وكانت اذا

تكلمت ابرقت عيناها وابتسمتا ابتساماً مسكراً واذا سكتت ارتفعتا الى السماء ارتفاعاً طبيعياً لا صناعة فيه فيكون لها حينئذ منظر شديد التاثير يمازجه شيء من التامل والحزن . واما بولس فقد اخذت تبدو عليه علامات الرجولية من خلال سن الصبا . فان قامته صارت اطول من قامة فرجيني ولونه صار اسمر من لونها وانفه معقوفاً اكثر من انفها . وكانت عيناه سوداوين كبيرتين ولهما منظر يدلُّ على الكبرياء لو لم يكن حولهما اهداب كالاشفار تلطف قوتهما . وكان بولس في حركة دائمة في النهار ولكنه كان اذا رأى فرجيني قادمة نحوه ترك كل عمل وحركة وجلس بجانبها . وكثيراً ما جلسا ياكلان معاً وهما ساكتان لا ينطقان ببنت شفة . الا ان اعينهما كانت تلتقي كثيراً فكانت شفاههما تبتسم لالتقائها . وبذلك كانا يشبهان اولاداً من اولاد السماء الذين يتخاطبون بالروح لان السلتهم لا تعرف كلاماً يعبر عما في نفوسهم من عواطف الحب والصداقة

٥

قساوة عمة

وكانت فرجيني كلما تقدمت من الشباب وزادت محاسنها اشراقاً ازداد بال امها اشتغالاً بشانها . ولذلك كانت تقول لي : « ماذا يحلُّ بفرجيني اذا متُّ وهي لا تملك شيئاً » وفي ذات يوم عزمتْ على ان تكتب بهذا الشان لعمتها الغنية في اوربا . وقد قهرت نفسها على ذلك لا من اجلها بل من اجل ابنتها لانها كانت تستهون كل صعب في سبيلها. فتناولت قلماً وكتبت اليها تشكو حالها وتخبرها بموت زوجها وبولادة ابنة لها . فلم يردها جواب منها . فعادت مدام دي لاتور مع انفتها وابائها وكررت الكتابة الى تلك العمة القاسية رغبة في تدارك مستقبل ابنتها . فمرت عليها بضع سنوات دون ان تاخذ جواباً على كتابها . ولكنها في عام ١٧٣٨ اي بعد انقضاء ثلاث سنوات على قدوم المسيو دي لابوردوناي حاكماً لهذه الجزيرة بلغها ان هذا الحاكم يسال عنها ليدفع اليها كتاباً من عمتها . فطارت مدام دي لاتور اليه واخذت ذلك الكتاب منه . ولما قرأته وجدت ان عمتها تقول لها فيه انها تستحق التعاسة التي وقعت فيها لانها رضيت بالاقتران برجل دنيء الاصل . وان في الشهوات نفسها عقاباً لاصحابها . وان موت زوجها قبل الاوان قصاص عادل من الله. وانها احسنت في التجائها الى المستعمرات فراراً من الصاق وصمة العار باسرتها في فرنسا . ثم هي تقول لها انها في بلاد غنية لا يفتقر فيها الا الكسالى . وبعد كتابة هذا

الكتاب علقت عليه حاشية خلاصتها انها عادت فاوصت بها المسيو دي لابوردوناي خيرًا اما مدام دي لا تور فانها بعد وقوفها على هذا الكتاب وقعت في اليأس خصوصًا حينما قال لها الحاكم انه يجب عليها ان لا تزعج بكتبها عمتها الكريمة . فعادت هذه الام الى منزلها في الجبل والقت الكتاب على المائدة امام رفيقتها قائلة « هذه هي نتيجة اصطباري احدى عشرة سنة »

ولما درت بذلك مرغريت وفرجيني و بولس حزنوا لحزن مدام دي لا تور وصارت فرجيني تقبّل امها تخفيفًا لحزنها واخذت صديقتها مرغريت تقول لها « لسنا في حاجة الى اهلك فان الله لا يتركنا وهو وحده ابونا فتشجعي ياعزيزتي ولا تحزني » . اما بولس فانه كان يرفس الارض بقدميه و يتهدد بقبضتيه دون ان يعرف على ايّ بشر يجب ان يصب غضبه . فاخذت حينئذ مدام دي لا تور بولس وابنتها فرجيني بين ذراعيها وقبلتهما وهي تقول « انتما سبب حزني وفيكما اجد كل هنائي » فلم يفهم بولس وفرجيني هذا الكلام ولكنهما ابتهجا اشد ابتهاج حينما شاهدا مدام دي لاتور تمسح دموعها . وعلى ذلك كان هذا الاضطراب الوقتي عبارة عن زوبعة خفيفة في احد ايام الصيف الهادئة

٦

ما جزاء الاحسان الا الاحسان

وكان ميل بولس وفرجيني للخير ينمو في وسط تلك الطبيعة الهادئة نموًا مستمرًا . ففي يوم احد ذهبت مدام دي لاتور ومرغريت الى الكنيسة و بقيت فرجيني في البيت لاعداد الطعام . فبينما كانت مشتغلة بذلك واذا بزنجية في حالة يرثى لها من الفقر وسوء الحال قد وقفت امام الكوخ وهي تبكي من الجوع وصارت تقول « رفقًا بي ايتها الفتاة اللطيفة » ثم اخبرتها بان سيدها قد اساء اليها وعذبها فاضطرت الى الفرار من بيته ولذلك بعث يطاردها في الجبال لاصطيادها . اما هي فانها عزمت على طلب الموت ولكنها قالت في نفسها قبل ذلك يجب ان ازور هولاء البيض اولاً لعلهم يساعدونني و يدفعون الموت عني . فرقت لها فرجيني خصوصًا حينما شاهدت ما كان في جسمها من الجروح الناشئة على اثر السياط وقدمت لها كل ما اعدته للمنزل من الطعام في ذلك الصباح . فاكبت الزنجية على الطعام فلم تترك منه شيئًا . اما فرجيني فانها قالت لها : « هل ترومين ان اذهب معك لاطلب لك العفو من سيدك ياعمتي » فاجابت الزنجية : انني اتبعك حيثما ذهبت ياملاك السماء .

فنادت فرجيني حينئذ بولس وسالته ان يرافقها الى منزل سيد الزنجية ليطلبا لها العفو منه . فذهب بولس معها والزنجية تتبعهما . وكان منزل سيد الزنجية قائماً وراء الجبل فاجتازوا اليه الاكام والاحراش بعناء شديد . ولما وصلوا اليه رأوا الرجل يتنزه في حديقته وفي فمه غليونه . فدنت منه فرجيني باقدام مرتجفة وطلبت منه « ان يعفو عن خادمته اكراماً لله» اما الرجل فانه لم يعبأ في بدء الامر بتلك الفتاة وذلك الفتى اللابسين ملابس تدل على فقرهما . ولكنه حينما وقع نظره على عيني فرجيني الساحرتين ورأى قوامها الاهيف ووجهها المشرق بنور الجمال وسمع صوتها اللطيف الذي كان يرتجف من الانفعال كسائر جسمها رفع الغليون من فمه وقال «والله اني اعفو عنها ولكن لا اكراماً لله بل اكراماً لكِ » فاومأت حينئذ فرجيني الى الزنجية ان تتقدم ثم فرّت تركض نحو العرش و بولس يتبعها

و بعد ذلك اخذا يتسلقان الجبل للعودة الى المنزل . وكان قد انتصف النهار وقد سارا من غير طعام مسافة ١٥ ميلاً . فقال بولس لها : نحن من غير طعام منذ الصباح فهلمي نعود الى منزل سيد الزنجية لنتغدى فيه . فاجابت فرجيني : لا لا فانني خفت من ذلك الرجل خوفاً شديداً . واذكر يا بولس قول امي : ان خبز الرجل الشرير يملاء الفم حجارة وتراباً . فقال بولس : فماذا نصنع اذاً فانني لا اجد في هذا المكان شجرة مثمرة لتبردي بثمرها حرارتك وتبلي ريقك . فقالت فرجيني : ان الله لا يتخلى عنا وكما انه يسمع اصوات العصافير الصغيرة ويُنيلها مرادها فانه يسمع ايضاً صوتنا

ولم تاتِ فرجيني على هذا الكلام حتى سمعت خرير ماء فصاحت باخيها : لقد وصلنا الى نبع . ثم اسرعا الى صخرة كانت الماء تنبجس منها فشربا من مائها الصافي واكلا من النباتات التي كانت نامية في جوانبها

ثم اخذا يفتشان عن طعام افضل من هذا الطعام فوجدت فرجيني بين اشجار الحرش نخلة صغيرة . وكان بولس يعلم ان راس النخلة يتضمن دائماً كتلة من الالياف التي تصلح للاكل وهم يسمونها « ملفوفة او كرنباً » لشبهها به . فاخذ بولس يدبر طريقة لكسر تلك النخلة توصلاً « للملفوفة » وكان جذع النخلة صلباً لا تعمل فيه الفأس ولم يكن مع بولس شيء جارح حتى ولا سكين . فعمد الى كسر النخلة من طريق اخرى وذلك انه رام احراق الجذع ليتمكن من كسره . ولم يكن لديه نار لاحراقه فاخذ يوقد ناراً بالطريقة الطبيعية التي يجري عليها اهل هذه البلاد . وذلك انه جاء بغصن يابس ثم تناول حجراً محدداً وثقب الغصن به . وبعد ذلك جاء بغصن يابس آخر ولكن من غير نوع الغصن

الاول و برى طرفه بالحجر المحدد ايضاً . ثم ادخل طرف الغصن المبري في الثقب وصار يديره فيه بسرعة كما يُدار حجر الرحى . فلم تمر على ذلك فترة من الزمن حتى حمي الغصنان ثم تطاير منهما الشرر دلالة على اضطرام النار . فاخذ بولس هذه النار واضرم جزع النخلة بها . ولما احرقت النار الجذع هوت النخلة الى الارض . فاخذ بولس « الملفوفة » التي في راسها وصار يا كل منها مع رفيقته ثم شويا بعضها واكلاه مشوياً وهما في غبطة وسرور خصوصاً لتذكرهما ما صنعاه من الجميل مع الزنجية

ولكنهما بعد تناول الطعام اشتد قلقهما لغيابهما عن البيت وابطائهما في ذلك لعلمهما مبلغ اشتغال بال اهلها لهذا الامر . ولذلك عزما على الاسراع الى الكوخ . غير انهما كانا قد ضلاَّ الطريق . فقالت فرجيني « ان منزلنا من جهة الشمس اذا كانت في وسط النهار فيجب علينا ان نجتاز الجبل الذي امامنا للوصول اليه » فاخذا يسيران لصعود الجبل. ولم يتقدما قليلاً حتى اعترضهما في طريقهما نبع يتالف من مائه جدول يقطع الطريق. نخافت فرجيني من خوض الماء للمرور . فاخذها عند ذلك بولس على ظهره ثم سار في الماء



بولس مع فرجيني في الحرش يقطعان الجدول

وهو يقول « لا تخافي فانني اشعر بانني في غاية القوة حينما اكون معك . ولو لم يجبك الرجل الى العفو عن الزنجية لكنت ضربته » فصاحت فرجيني « هل حدثتك نفسك بمخاصمة رجل ضخم وشرير كذلك الرجل . يا لله ما اصعب صنع الخير في هذه الحياة وحقاً انه ليس فيها من امر سهل غير صنع الشر »

ثم اقبل المساء والولدان يسيران على غير هدى بين تلك الجبال والاحراش . ولما

اوشكت الشمس ان تغرب خافت فرجيني وضاق بولس ذرعاً فصار يروح ويجيء على غير هدى واخذت فرجيني تبكي وتقول « لقد اخطات لقد اخطات فانه يجب على الابنة ان تستشير امها في كل شيء حتى في صنع الخير » اما بولس فانه صعد الى شجرة ليرى ما كان امامه ووراءه فلم يرَ الا رؤوس الاشجار البعيدة . فنزل عن الشجرة وصعد الى اكمة ثم اخذ يصيح : « الينا الينا تعالوا وساعدوا فرجيني » فلم يجبه غير رجع الصدى بترديده اسم فرجيني . ولما سدت دون الولدين كل الابواب التفتت فرجيني الى بولس وقالت له « فلنصلِّ يا اخي فان الله يرفق بنا » فجثا الولدان على الارض بين الاعشاب والاشجار واخذا في الصلاة . وحينئذ سمع صوت كلب بعيد فصاحت فرجيني « اظن هذا الصوت صوت كلبنا « فيدل » فانني اعرفه ولعلنا صرنا على مقربة من الكوخ » فاجاب بولس « كلا ولكنه على الارجح صوت احد كلاب الصيادين الذين يكمنون الايل مساء في هذه الجهات »

وبعد حين قرب صوت الكلب فالتفت بولس وفرجيني فابصرا عبدهما دومنيك يركض نحوهما والكلب « فيدل » امامه . فطار الولدان من الفرح واخذا يبكيان . اما العبد فانه تنفس الصعداء حين رؤيتهما وقال « ياسيديَّ لقد ذابت نفس والدتيكما خوفاً عليكما » ثم قصَّ عليهما الطريقة التي عرف بها مكانهما ومرجع الفضل فيها للكلب « فيدل » الذي لما شممه ملابسهما القديمة سار في اثرهما يطلبهما مهتدياً بحاسة الشم وعارفاً بها الطريق التي سلكاها في الذهاب والاياب (١)

وكان قد هبط الظلام . فاراد بولس وفرجيني السير فوجدا انهما في غاية التعب لا يقدران على نقل قدم . ولكن من حسن الحظ ان بعضاً من الزنوج مروا في تلك الساعة من هنالك . فدنا زعيمهم وقال : لا تخافوا ايها البيض الصغار فاننا نروم مساعدتكم لاننا رايناكم في الصباح سائرين للشفاعة بزنجية من ابناء جنسنا . فهلموا نحملكم ونردكم الى منزلكم مكافاة لكم »

وحينئذ دنا اربعة من العبيد الاشداء فصنعوا محملاً قوياً وحملوا عليه بولس وفرجيني . فصعدت فرجيني الى المحمل ضاحكة والوت عنقها على كتف اخيها من التعب وهي تقول « ان

---

(١) وقد روى المؤلف ان الكاتب دي كريفكور ذكر في كتابه « رسائل زارع اميركي » ان احد المتوحشين ويدعى « تونيسا » كان له كلب اسمه « اونيات » اكتشف بحاسة الشم اموراً كهذا الامر

الله يجازي على الخير خيراً دائماً يا اخي ولا يذهب العرف بين الله والناس »
ولما وصل الولدان الى الكوخ ووقفت مدام دي لاتور ومرغريت على سبب غيابهما قبلتاهما وشكرتاهما على جميل صنعهما

٧

الزراعة والاسماء

وعلى ذلك فقد كانت معيشة هاتين العائلتين في الطبيعة على انفراد باعثاً على زيادة الانسانية فيهم وانماء الفضيلة في نفوسهم بدلاً من جعلها نفورة وحشية الاخلاق . وقد كانوا جميعاً يشكرون العناية الالهية ويعجبون بقوتها التي اخرجت على ايديهم من تلك الارض الصخرية الجدباء خيرات كثيرة وجعلتها حدائق غناء . فان بولس من جهة ودومنيك من جهة اخرى كان لا همّ لهما الاّ غرس الاشجار وزراعة الحبوب والنباتات فيها . وقد كانوا يزرعون هنا ليموناً حامضاً وبرتقالاً وهناك شجراً من التمر الهندي وهنالك نخيلاً وموزاً وفي تلك الجهة حبوباً كالارز والحنطة وغيرها . وكان كل غذائهم من هذه الاثمار والحبوب والنباتات . وقد زرع بولس ودومنيك هذه المزروعات بشكل جميل خصوصاً في هذه الحديقة التي امام الكوخين . فانهما كانا يغرسان فيها الشجيرات الصغيرة في الصف الاول ويغرسان وراءها شجيرات اكبر منها وهكذا الصغرى فالصغرى فكان الواقف امام الكوخين يصل نظره الى جميع الاشجار المغروسة لان نوعها الصغير كان متقدماً على نوعها الكبير. فكان لذلك منظر رائق تنبسط له النفس . وكانوا في كل مساء يخرجون الى تلك الصخرة التي امامنا ويجلسون عليها تحت الشجرة لمشاهدة البحر والمدينة . وكانوا يسمونها « اكتشاف الصداقة » لانهم كانوا ينظرونني منها حين قدومي من كوخي اليهم . وكان بولس وفرجيني قد نصبا في الشجرة عصا طويلة حتى اذا ظهرتُ لهم من اعلى الجبل رفعا عليها عَلَماً دلالة على قدومي . وقد صنعا في الجبل مثل ذلك ايضاً فقد نصبا في قمته عصا اخرى كانا يرفعان عليها عَلَماً آخر كلما شاهدا باخرة تمرُّ في عرض البحر . اما انا فقد كنت اتسلى احياناً بان احفر لهم ابياتاً من الاشعار اللاتينية في بعض الاماكن . فحفرت تحت العلم المنصوب فوق الشجرة بيت هوارس « ليدبرك الله الريح ولا يُرسل عليك غير النسيم » وحفرت على جذع شجرة كان بولس يستريح تحتها من تعب النهار ويشاهد البحر المزبد امامه بيت فرجيل « ما اسعدك يا بنيَّ لانك لا تعرف غير اله الحقول » وحفرت على باب

كوخ مدام دي لاتور بيتاً آخر لفرجيل « هنا ضمير حي ونفس لا تعرف الخداع » اما فرجيني فانها كانت لا تستحسن ابياتي اللاتينية · وانتقدت كتابتي تحت الراية المنصوبة في الشجرة فقالت : لو كتبت تحتها « تضطرب دائماً ولكنها ثابتة » لكان ذلك ابلغ · فنظرت اليها واجبتها « هذا القول اكثر انطباقاً على الفضيلة منه على الراية » فغضت طرفها عند هذا الكلام وصبغ الحياء وجنتيها

وكان لنا في تسمية الاماكن باسماء الامور التي تقع فيها بعض التسلية · فقد سمت مدام دي لاتور ومرغريت شجرة قديمة جلستا تحتها عند التقائهما اول مرة لتتحادثا بمصائبهما « مسح الدموع » وسمى بولس وفرجيني حلقة من شجر البرتقال كانا يرقصان في وسطها « ساحة الاتحاد » وقد خططت الامّان قطعتي ارض وسمتا الواحدة « بريتانيا » والاخرى « نورمنديا » تذكاراً لوطنيهما · وكانت هذه الاسماء كثيرة حتى انني اذا اجلت نظري الآن في هذا المكان خيل لي انني بين اطلال اليونان حيث لا يجد الانسان الا خرائب واسماء جميلة

٨

نبع فرجيني

ولكنّ اجمل الاماكن في هذه الحدائق كان المكان المسمى « استراحة فرجيني » · فانه كان تحت الصخرة المسماة « اكتشاف الصداقة » نقر واسع ينبجس منه ماء صاف كالبلور · وكانت فرجيني تذهب احياناً وتنام في ذلك النقر على شاطئ النبع ولذلك سمي المكان « استراحة فرجيني » وكان بجانب هذه العين شجيرتان صغيرتان من النارجيل اسم الواحدة « شجرة بولس » واسم الثانية « شجرة فرجيني » لان ام بولس غرست الاولى يوم ولادته وام فرجيني غرست الثانية يوم ولادتها · وكانت الشجيرتان تنموان بنمو الولدين وهما متجاورتان كانهما خارجتان من ساق واحدة · وكانت شجرة بولس اكبر من شجرة فرجيني قليلاً كما كان بولس بالنسبة الى فرجيني · ولما راى بولس ان رفيقته تحب الاقامة في هذا المكان ذهب الى الحرش وجاء منه بكثير من اعشاش الطيور ووضعها في الاشجار التي كانت حول النبع · فتبعت امات (١) الطيور صغارها الى النبع وجعلته موطناً لها ·

---

(١) يُقال « امهات » للحيوان العاقل اي الانسان مثال ذلك « امهات الاولاد » و « امّات » للحيوان الغير العاقل مثال ذلك « امات الطيور »

وكانت طيور البحر ترى من الشاطىء ذلك المكان الاخضر الخصيب فتأوى اليه ايضاً وتبيت فيه · فازدادت فرجيني حباً لنبعها · وكانت اذا خرجت من الكوخ تقصد النبع



نبع فرجيني — هي والطيور — شجرة بولس وشجرة فرجيني

طارت لاستقبالها جميع الطيور التي كانت مجتمعة حوله لانها الفتها · ثم ان هذه الطيور كانت تقع قريباً منها او ترف حولها لان فرجيني اعتادت ان تنثر الحبوب لها · وكانت هذه الطيور الوحشية النافرة التي لاتدنو من الانسان مائة خطوة في عرض البر تصل الى قدميها كانها دجاج بيتية · فكان ذلك يسر بولس وفرجيني سروراً شديداً

٩

معيشتهم الطبيعية

اما مبادىء هاتين العائلتين الدينية فقد كانت مبنيـة على العواطف · فانهم كانوا يعجبون في كل حين بذلك العقل العام المدبر الذي يدير العالم وتلك العناية الالهية المسالمة للبشر والعاملة لفائدتهم · وكان اعتقادهم هذا الاعتقاد الثابت يبث فيهم روح التعزية عن الماضي ويشجعهم في الحاضر ويؤملهم في المستقبل · وعلى ذلك فان هاتين المرأتين اللتين اضطرتهما مصائبهما الى الرجوع للطبيعة والمعيشة فيها قد وجدتا في الطبيعة قوة على غرس الفضائل التي تكفل دفع تلك المصائب في نفسيهما ونفسي ولديهما

وكانوا في فصل الصيف يذهبون في كل يوم احد الى الكنيسة فكان الاغنياء والفقراء يحيطون بهم لمشاهدتهم وذلك لما سمعوه عنهم من الفضل وما رأوه في وجوههم من دلائل البساطة

والصلاح والفضيلة · وكان الاغنياء يدعونهم الى منازلهم فيعتذرون لهم بلطف لانهم كانوا يعرفون ان الكبار لا يطلبون صداقة الصغار الا ليتزلف هؤلاء اليهم و يمدحوا كل اعمالهم قبيحها ووحسنها · وكذلك كانوا يجتنبون مخالطة صغار السكان لانهم يكونون على الغالب كثيري الحسد والنميمة والغلاظة · ولذلك كان الاولون يحسبونهم ضعفاء مساكين والآخرون يحسبونهم متكبرين متغطرسين · غير ان لطفهم في الرفض والاجتناب واحسانهم الدائم الى الفقراء والمرضى كان يكسبهم الكرامة والاحترام لدى الكبار والصغار معاً

ذلك ان كل اهتمامهم في هذه الزيارة كان مصروفاً الى المرضى والفقراء · وكانت فرجيني تهيء في المنزل الادوية التي تامرها امها بتهيئتها ثم تجيء بها في يوم الاحد في طريقها · وكلما سمعوا بمريض او مريضة من الفقراء ذهبوا لعيادتها وتخفيف تعبها · وكانت مدام دي لا تور تحادث المريضة عن الله و رحمته وعنايته حديثاً يدخل النفوس فيخيل للسامعين ان العناية التي تتكلم عنها تلك السيدة موجودة بينهم · وكثيراً ما عادت فرجيني من هنالك وعيونها مبتلة بالدموع من شدة التاثر

وكانت هذه الحياة الجديدة ممزوجة بشيء من الهزل · فقد كان بولس وفرجيني يمثلان امام الجميع في اوقات الفراغ قصصاً ادبية كنا نصرف الوقت في التسلي بها · واحياناً كانت مدام دي لاتور تقص علينا في الليل قصصاً نصغي اليها بلذة وسرور

وكان الفقراء قد اهتدوا الى هذا المكان وعرفوا صلاح سكانه فلم يلبثوا ان صاروا يفدون عليه ويطلبون المساعدة · فكانت العائلتان لا تردان لهم طلباً · وكانت فرجيني تقول في كل مرة تساعد فيها فقيراً « سعادة الانسان في ان يهتم بسعادة غيره »

١٠

حنو بولس وحنو فرجيني

وانكم انتم ايها الاوربيون تجهلون مبلغ السعادة التي تكون لابن الطبيعة بمعيشته في النور والهواء والسرور الدائم · ذلك لان نفوسكم ينطبع فيها منذ الصغر مبادىء تخالف المبادىء المؤدية الى السعادة الحقيقية · وعقلكم الذي تحصرونه في بعض المعارف البشرية لا يلبث ان يصل في ملاذه الى حدها الاخير · اما ملاذ الطبيعة والقلب فلا حدّ لها

وهكذا كانت ملاذ بولس وفرجيني . نعم انه لم يكن لديهما ساعة لمعرفة الوقت ولا تقاويم ولا كتب في الفلسفة والتاريخ ولكنهما كانا في غنى عن ذلك كله . فقد كانا يعرفان ساعات النهار من نظرهما الى اظلال الاشجار . و يعرفان فصول السنة من اثمارها وازهارها . وعدد السنين التي تمرّ عليهما من عدد مواسم الحنطة والارز . وقد كان هذا التوقيت الجديد يجعل في حديثهما صوراً جميلة . فقد كانت فرجيني تقول للعائلة عند الظهر « جاء وقت الغداء . لان ظل اشجار الموز صار على جذوعها » وفي المساء « لقد اقبل المساء لان التمر الهندي اخذ يطوي اوراقه » واحياناً تسألها بعض جاراتها « متى تزورينا يافرجيني » فتجيبهن « في ايام قصب السكر » فيجبنها « اهلاً بك وستكون زيارتك حلوة مثله » واذا سُئلت عن عمرها وعمر بولس فانها كانت تقول « اخي عمره كعمر شجرة النرجيل الكبيرة التي على النبع وانا عمري كعمر الشجرة الصغيرة . ومنذ ولدتُ الى اليوم اثمرت شجرة الهند اثنتي عشرة مرة وازهرت اشجار البرتقال ٢٤ مرة » وهكذا كانت حياتهما مرتبطة بحياة الاشجار والازهار فلم يكن يعرفن شيئاً غيرها

وما الذي يوجب عليهما ان يعرفا غير ذلك . واي فائدة لهما في ان يكونا غنيين عالمين كما يطلب باقي الاولاد . اليست قلة حاجاتهما وجهلهما هما اللذان كانا سبب سعادتهما وهنائهما . فانهما في هذه المعيشة الطبيعية البسيطة لم يجعد الهمُّ لهما جبيناً . ولا افسدت الشراهة لهما دماً . ولا دخلت شهوة رديئة لهما قلباً لتفسده وتجعله رديئاً . بل انهما كانا يعيشان كل يوم في الحب والطهارة والتقوى . فكانت هذه الفضائل تنمي فيهما كل يوم جمال النفس وجمال الجسد معاً . فكانهما كانا في صبيحة عمرهما هذه كما كان في جنة عدن ابوانا الاولان حينما خرجا من يد الله . فان فرجيني كانت كحواء في لطفها واتضاعها وثقتها . وبولس كآدم اذ كان له جسم الرجال ونفس الاولاد

وكثيراً ما كان بولس ينفرد بفرجيني فيقول لها « اذا كنتُ تعباً فاول ما انظركِ يزول تعبي . ومتى رأيتك من قمة الجبل وانتِ في وسط هذا الوادي يخيل لي انك زرّ ورد بين هذه الاشجار . واذا سرتِ الى البيت كانت خطاكِ اخف من خطى الحجل على العشب . ومتى غبتِ عن نظري فانني لا احتاج للتفتيش عنك لمعرفة مكانك لان نفسي تجد دائماً اثراً منك في الهواء حين مرورك وعلى العشب حين جلوسك عليه . وحينما ادنو منك تضطرب حواسي كلها . فانني ارى زرقة السماء اقل جمالاً من زرقة عينيك واصوات الطيور اقل رخامة من صوتك . واذا مسستك مساً باصبعي يرتعد جسمي كله ارتعاد

الابتهاج والسرور . تذكري ذلك اليوم الذي قطعنا فيه الجبل للشفاعة بالزنجيـة وكيف حملتك على ظهري حين عودتنا لنقطع الجدول . فانني لما وصلت الى الجدول كنت في غاية التعب ولكني لما حملتك على ظهري خُيل لي من القوة التي عادت اليَّ انني صرت ذا جناح كالعصافير . فقولي لي باي شيء سحرتني هذا السحر . ابعقلك ؟ ولكن عقل امك وامي اكبر من عقلك . ابقبلاتك ؟ ولكن امي وامك تقبلانني اكثر منك . بماذا اذًا ؟ اظن انك سحرتني برقة قلبك وجمال نفسك . فانني لا انسى قط انك قطعت الحرش والجبل حافية القدمين على الحصى لطلب العفو عن زنجية مسكينة »

اما فرجيني فانها كانت تجيبه « لستَ اسرّ باشعة الصباح حين ظهورها على رؤوس هذه الصخور سروري برؤيتك . انني احب امي وامك ولكنني حينما اسمعهما تناديانك « يا بني » يزداد حبي لهما . ومتى قبلتك فان ذلك يؤثر فيَّ اكثر من تاثير قبلاتهما لي . ولقد سألتني : لماذا تحبني . فانا اجيبك ان كل الذين يربون معاً يحبون بعضهم بعضاً . انظر الى طيورنا التي تنشأ في اعشاش واحدة الا تراها تحب بعضها بعضاً مثلنا . اسمع اسمع كيف ينادي بعضها بعضاً من اعلى الجبل الى هذا الوادي . انني اصلي الى الله في كل يوم من اجل امي



فرجيني تمسح العرق عن وجه بولس

وامك ومن اجلك ومن اجل الخادمين . ولكنني لما الفظ اسمك في صلاتي اشعر بزيادة تقواي . وانني اسال الله في كل حين ان يقيك كل مكروه . لماذا تبعد في الحرش كثيرًا

وتصعد الى اعالي الاشجار لتاتيني بازهارها واثمارها · انما لدينا في الحديقة ما يكفينا منها· انظر انظر كيف ان العرق يتصبب من جبينك » — ثم انها كانت تتناول منديلها وتمسح العرق عن جبينه ووجنتيه الموردتين وتقبله فيهما عدة قبلات »

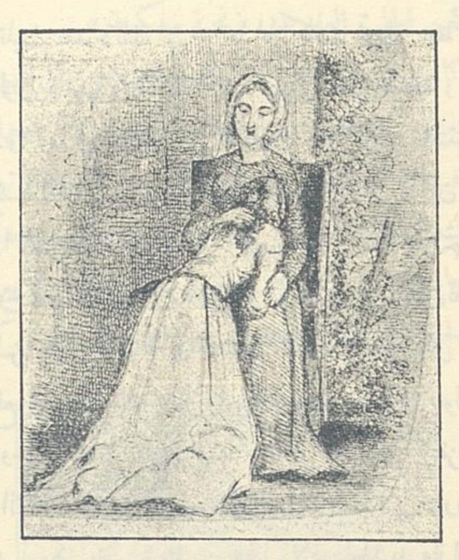
١١

الم فرجيني الجديد

ولكن فرجيني لم تلبث بعد ذلك ان عراها الم كانت تجهله · فطُوقت عيناها الجميلتان بطوق ازرق واصفر لون وجهها واصاب جسمها ذبول عام اضعفه وزال ما كان على جبينها من دلائل الهدوء وما في شفتيها من الابتسام · واصبحت تجتنب العابها الاعتيادية ورياضتها اليومية وتقصد الجهات البعيدة طالبة الراحة في كل مكان دون ان تجدها في مكان · وكانت اذا وقع نظرها على بولس اتجهت اليه ركضاً ولكنها متى دنت منه كانت تسكن بغتة وتصطبغ وجنتاها الصفراوان بلون الورد دون ان يكون لعينيها جراَة على النظر الى عينيه · فكان بولس يقول لها : « ان العشب الاخضر يغطي كل الصخور التي حولنا والطيور تناديك كلما وقع نظرها عليكِ وكل شيء مبتهج مسرور حولكِ الا انتِ فانكِ منقبضة الصدر » — وحينئذ يدنو منها ليقبلها · فتنفر منه وتفرُّ كالغزال الشارد قاصدة امها · ذلك ان هذه الفتاة المسكينة كانت تشعر ان قبلات بولس صارت تلقي الاضطراب في نفسها · اما بولس فانه لم يكن يفهم شيئاً من هذا الامر الجديد ولذلك كان في هم شديد وحيرة شديدة

وكان الحرّ في « جزيرة دي فرنس » يشتد في ثلاثة اسابيع في اثناء السنة الى درجة غريبة · فان الينابيع كانت تجف والريح تهمد والليل نفسه كان حارًا حتى ان المواشي التي كانت على الجبال في هذا الاوان كانت ترفع رؤوسها الى السماء كانها تستغيث من حر الارض · ففي ليلة من هذه الليالي الحارة اشتدّ الم فرجيني في فراشها · فاخذت تتقلب تقلب الملسوع · ثم صارت احياناً تقوم واحياناً تجلس واحياناً تنام دون ان يجد الكرى سبيلاً الى جفنيها والراحة سبيلاً الى نفسها · فنهضت من فراشها وسارت على اشعة القمر الى نبعها لتستحم في مائه تبريدًا للحرارة الشديدة · ولما وصلت الى النبع القت نفسها في حوضه فارتاحت نفسها للبرودة التي اصابت جسمها وهداء بالها قليلاً · ولكنها لم تلبث ان عادت اليها افكارها لما وقع نظرها على شجرة بولس وشجرتها في جانب النبع · فتنهدت تفريجًا

لكربها . ثم القت نظرها الى ما حولها فراعهــا ذلك السكون واخذ الماء يسخن لامتصاصه حرارة جسمها فخرجت منه بسرعة وراحت تركض الى امها تطلب عندها ملجاء مما كان في نفسها . اما امها فانها كانت قد درت بالمها ولكنها كانت لا تجسر على مخاطبتها فيه . وقد رامت فرجيني احيانًا ان تسال امها المعونة واوشكت مرارًا ان تبكي امامهــا وتلفظ اسم "بولس" لديها ولكن ضيقًا في نفسها كان يمنعها من ذلك كلما حاولته . ففي هذه الليلة حينما جاءت فرجيني والقت نفسها بين ذراعيها قالت لها هذه الام العاقلة : "وجهي نفسك الى



فرجيني تشكو المها الجديد الى امها

الله يا بنية وكلي اليه امرك . فمنه وحده الصحة والحياة . وهو يجربك الآن ليكافئك غدًا . ولا تنسي اننا لم نُخلق على هذه الارض الا لممارسة الفضيلة"

ولكن بعد ايام الحرّ هذه هبت على الجزيرة عاصفة هائلة وانفتحت ابواب السماء فنزل منها على الارض مطر غزير برّد حرارتها . فلزمت العائلتان الكوخين مدة الزوبعة والمطر وهما تصليان الى الله ان يدفع عنهما الخطر . اما بولس الشجاع الباسل فانه خرج مع دومنيك لتقوية الكوخين وافتقاد الحديقة . ولما زال خطر الزوبعة رامت فرجيني الخروج من الكوخ فدنا بولس منها بجبن وخوف وقدم لها ذراعه . فاخذتها فرجيني باسمة وخرجت معه . فلما صارا في الحديقة وجدا ان المطر والريح قد جرفا الارض وكسرا الاشجار وخربا الحديقة كلها . اما نبع فرجيني فقد غمره السيل واجتاح كل ما كان حوله . وكانت بعض الطيور

على الاغصان تئن انيناً ضعيفاً كانها تبكي اعشاشها وفراخها التي ذهبت الزوبعة بها . فالتفتت فرجيني حينئذ وقالت باسف « كل شيء في الارض يزول الا السماء فانها تبقى كما هي » فقال لها بولس « ليتني قادراً على ان اعطيك شيئاً من السماء ولكنني لا املك شيئاً في الارض فكيف فيها » فاجابته فرجيني « بل انك تملك صورة القديس بولس » فلما سمع بولس هذا الكلام طار ركضاً الى الكوخ وعاد بهذا الرسم . وكانت امه قد جاءت به من اوربا وفي اثناء معيشتها منفردة عن الناس كانت تتعزى بالنظر اليه لان هذا الرجل عاش مثل هذه المعيشة . ولذلك سمت ابنها باسمه . فلما القى بولس هذه الصورة الى فرجيني اخذتها هذه قائلة « ساحفظها يا اخي الى آخر نسمة من حياتي ولا انسى انك اعطيتني الشيء الوحيد الذي تملكه في هذا العالم » فلما سمع بولس من فرجيني هذه اللهجة الودادية التي مرَّ عليه زمن ولم يسمعها منها سُرَّ وهمَّ بتقبيلها . اما فرجيني فانها افلتت منه كالعصفور وركضت نحو الكوخ تاركة بولس المسكين في سخط وهياج شديد

١٢

الاستعداد للسفر

وفي ذات يوم قالت مرغريت لصديقتها مدام دي لاتور « لماذا لا نزوج بولس بفرجيني : فان الواحد منهما يحب الآخر حباً شديداً . نعم ان ابني لم ينتبه الى ذلك بعد لان الطبيعة لم تحدثه بلغتها الى الآن ولكنها متى حدثته صار من الصعب السهر عليهما ومراقبتهما » فاجابتها مدام دي لاتور « انهما صغيران وفقيران يا اختي فماذا يحلُّ بنا متى رزقا الاولاد وعجزنا عن خدمتهم لضعفنا جميعاً . فدعي هذا الامر حتى يقوى بولس ويصير قادراً على القيام بحاجاتنا . وما قولك في ارساله الى الهند للاتجار فيها فانه لا يقيم هنالك بضعة اسابيع حتى يجمع شيئاً من المال فيشتري به بعض الزنوج ويعود للزراعة في هذه البلاد . هل ترومين ان نستشير جارنا في ذلك »

وفي الواقع ان هاتين السيدتين استشارتاني في هذا الامر في اليوم الثاني . فوافقتُ على رأيهما وقلت لهما ان بولس اذا اخذ من هذه الجزيرة شيئاً من القطن الرخيص الثمن عندنا لعدم وجود معامل لحلجه ونسجه واغصان الابنوس الكثيرة في احراشنا حتى اننا نتخذها للوقد كالحطب فانه يربح بها في الهند ارباحاً كثيرة . ولكنني لما اطلعت بولس على هذا الامر اظهر الرفض البات وقال انه لا يترك العائلتين وحدهما خصوصاً فرجيني التي

كانت متالمة في ذلك الوقت

فاوقعني جوابه هذا في حيرة شديدة · ذلك ان مدام دي لاتور كانت قد ابلغتني سرًا رغبتهـا في ابعاد بولس عن فرجيني مدة من الزمن · وبينما كنت مفكرًا بذلك واذ ورد على مدام دي لاتور من عمتها الغنية في فرنسا كتاب مع سفينة قدمت الى الجزيرة · وكانت هذه العمة القاسية قد اصيبت بمرض افنى قواها فكتبت الى مدام دي لا تور من خوفها من الموت ان تعود اليهـا مع فرجيني واذا كانت لا تستطيع السفر فلترسل فرجيني وحدها · وقد قالت في كتابها انها عزمت على ترك اموالها واملاكها كلها لها اذا ارسلتهـا وتدبر لها زوجًا عظيم الشان في البلاط الملكي اما اذا لم ترسلها فانها تحرمها من كل ارث منهـا

فلما تُلي هذا الكتاب على العائلتين ساد القلق والجزع فيهما · واخذ العبد دومنيك وزوجته يبكيان لهذا الخبر · واما بولس فانه كان جامدًا كالصنم ولكن كل ناظر اليه كان يعلم ان زوبعة الغضب والغيظ كانت في صدره قريبة الظهور · واما فرجيني فانها كانت شاخصة بعينيها الى امها وهي ساكتة · فنظرت مرغريت الى صديقتها وقالت لها : « هل تتركيننا يا اختي » فاجابت مدام دي لا تور « لا لا · لا اتركم فانني عشت معكم واريد ان اموت معكم »

فساد الفرح عند ذلك في العائلتين · واخذ بولس يقبّل مدام دي لا تور ويشكرها · وظهر على وجه فرجيني شيء من دلائل السرور ايضًا ومنذ هذا الحين زال انقباضها فازداد بذلك سرور العائلتين

ولكن ما طلع صباح اليوم التالي حتى صعد حاكم الجزيرة نفسه الى الكوخين وقابل مدام دي لا تور · وكان غرضه من ذلك ابلاغها ان الادارة قد كتبت له بان ياخذ فرجيني بالقوة ويرسلها الى عمتها في فرنسا اذا كانت امها تعارض في ذلك · ثم القى امامها كيسًا مملوءًا بالنقود لتهيئة فرجيني للسفر وقال لها في السر « انني متحقق ان عمتك لا تعيش اكثر من سنتين فلا تضيعي ثروتها من يدك فان ذلك يجب عليك من اجل ابنتك »

وكانت مدام دَي لا تور لا تكره في الباطن ابعاد فرجيني عن بولس مدة من الزمان فامتثلت امر الحاكم · ولكنها لما خاطبت في ذلك ابنتها فرجيني اجابتها هذه « ان الله فرض علينا العمل كما قلتِ لي مرارًا وعنايته لا تهمل الفقراء على الخصوص كما علمتني · فما

الواجب اذاً للسفر . انني لا استطيع فراقك » فاجابتها امها « لا همَّ لي يا بنية في هذا العالم غير جعلك سعيدة وتزويجك ببولس يوماً من الايام . فافتكري منذ الآن ان سعادة بولس بين يديك ولذلك دعوتك للسفر »

فلما سمعت فرجيني اسم بولس من امها طفحت كاس حبها فاطلعتها بخجل وحياء على ما في نفسها من الالم وكيف كانت تصارع ذلك الالم مصارعة لم يقف عليها احد غير الله.

فاجابتها امها بهدوء « اكتمي يابنية حبك عن بولس فان الفتاة متى استولى حبيبها على قلبها لم يعد يجوز له ان يطلب شيئاً غيره »

ولكن لم يكد يهبط المساء حتى دخل عليهم رجل ضخم الجثة يلبس ثياب الرهبان . وكان هذا الراهب معلم اعتراف مدام دي لاتور وابنتها . فالتفت الى الام وقال : ليكن اسم الله مباركاً يابنية فانك قد صرت ذات ثروة طائلة . وقد اصبحتِ بعد الآن قادرة على مساعدة الفقراء والعمل بما يوحيه قلبك الكريم . ثم التفت الى فرجيني وقال : لقد علمتُ بما دار بينكم وبين الحاكم من الكلام . فاخضعي يابنية للعناية الالهية ولارادة اهلك الطاعنين في السن وان كانوا ظالمين . فان هذه هي ارادة الله . الا ترضين بالسفر يابنية »

فاطرقت فرجيني حياءً ثم قالت وصوتها يرتجف « اذا كانت هذه هي ارادة الله فانني اسافر ولتكن ارادته » ثم بكت وانطرحت بين يدي امها

اما انا فانني كنت معارضاً في هذا السفر ولكن معارضتي لم تجدِ نفعاً بازاء بريق الثروة الطائلة وامر الراهب الذي كانت ارادته مقدسة عند مدام دي لاتور . واما بولس فانه كان يجهل هذه المخابرات كلها . وكان كلما رآنا في همس ومخابرات سرية هزَّ راسه وقال بحزن « لا ريب في ان كل ذلك موجه ضدي لانهم يخفونه عني »

١٣

غضب وعهد

ولما ذاع في المدينة ان الثروة قد طرقت هذين الكوخين صعد اليهما كثيرون من باعة الانسجة والنفائس . فابتاعت فرجيني للعائلتين كثيراً من الاشياء حتى نفدت النقود من الكيس قبل ان تفتكر بنفسها . ولذلك عادت وشاركتهم في الاشياء التي ابتاعتها فاقتسمتها بينهم وبينها . ولما راى بولس ذلك تحقق انه من قبيل الاستعداد للسفر فقصدني وطلب اليَّ ان اذهب واقنع فرجيني بالعدول عنه . فجئتُ الى هنا فشاهدتُ فرجيني في

ثوب جميل مشدودة الخصر بالكورسه والانفعال بادٍ في وجهها · وكان هذا الانفعال الذي كانت تغالبه ويغالبها يجعل في عينيها ذبولاً غريباً وفي وجهها لوناً رائقاً وفي صوتها نغمة موءثرة · فلم يكن احد قادرًا على روءيتها او سماع كلامها دون تاثر واعجاب · ولذلك ازداد تاثر بولس وحزنه على سفرها · وفي مساء ذلك اليوم خرجت فرجيني بعد العشاء الى هذا المكان وجلست تحت الشجرة على صخرة « اكتشاف الصداقة » فتبعها بولس وجلس بجانبها · وكان الليل صافياً والقمر منيرًا في الافق · فلبث الاثنان ساكتين مدة وكنا نحن جالسين على مقربة منهما · ثم افتتح بولس الكلام فقال : « اصحيح يامدموازل انك تسافرين بعد ثلاثة ايام كما سمعتُ · وكيف لا ترهبين اخطار البحر مع شدة خوفك منه » فاجابت فرجيني « ما العمل فانه يجب عليَّ ان اقوم بالواجب المفروض عليَّ » فقال بولس « وكيف تتركيننا من اجل اهلٍ بعيدين عنك ولم تربن لهم وجهاً » فقالت فرجيني « كنت احب البقاء هنا ولكن امي لا ترضى بذلك والكاهن قال ان الله يامرني بالسفر » فقال بولس « اهذه هي كل الاسباب التي حملتك على السفر ام هنالك اسباب اخرى · نعم هنالك الثروة وبريقها يامدموازل والعالم وملاذه والدنيا وابهتها · فاذهبي · انك ستجدين اخاً غيري بين اصحاب الثروة والجاه في تلك البلاد ولكنك لا تجدين ابدًا هناءً وسعادة كالسعادة التي وجدتِها ههنا · ولكن اخبريني ماذا يحل بنا بعدك · كيف نعيش هنا ايتها القاسية بدونك · ماذا اقول لامك ولامي كلما رايتهما تبكيان لغيابك · كيف تكون حالتي كلما القيت نظري في النبع الى شجرتك · آه لماذا لا تدعينني اذهب معك · انني اهدىء روعك حين اشتداد العواصف لانك تخافين منها خوفاً شديدًا · ومتى وصلنا الى فرنسا فانني اخدمك كعبدك وخادمك واموت في قصرك المذهب العظيم تحت قدميك وفي خدمتك »

ثم خنقت الزفرات صوته فسكت فاجابت فرجيني بصوت لطيف « انني لا اسافر يا اخي الا من اجلك · وذلك لانني اراك محنياً الى الارض في كل يوم لتسد حاجات عيلتين · فمتى صرتُ غنية استطعت ان ارد اليك الخير الذي صنعته معنا مائة ضعف · بولس بولس انت لدي اعز من اخ · والله يشهد على ما عانيته من الشدة في الابتعاد عنك · وقد كنت اوءمل انك تساعدني على هذا البعد مدةً الى ان يجيء الوقت الذي يسمح الله فيه بمباركة قراننا · اما الآن فان حزنك يفني قوتي و يضعف عزمي · فسابقى · ساكون لك في الموت والحياة · فاصنع بي ما تشاء · لقد قدرت على مقاومة قبلاتك وحنوك ولكنني

عاجزة عن الثبات لدى دموعك »

فلما نطقت فرجيني بهذا الكلام هجم بولس فعانقها بين يديه ثم صرخ باعلى صوته « ساسافر معها ساسافر معها اذ لا يفصلني شيء عنها »

فحين سماعنا هذا الصوت اسرعنا اليهما . ودنت مدام دي لاتور من بولس وقالت له « ماذا يحل بنا اذا تركتنا وحدنا يا بني »

فالتفت اليها بولس حينئذ وقال بغضب هائل «لستُ ابناً لكِ . ولستِ بامي . كيف تكونين امي مع انك تفصلين الاخ عن اخته . لقد رضعنا كلانا لبنك ونشأنا على يديك وتلقينا منذ الصغر محبتك فكيف يجوز لك ان تفصلي الواحد عن الثاني . ربما تقولين : انها ليست باختي . فانا اجيبك انها كل شيء لي : هي ثروتي وعيلتي ونسبي وحياتي ولا تملك يدي شيئاً سواها . لقد ولدنا تحت سقف واحد وربينا في سرير واحد ويجب ان نموت في قبر واحد . فاذا سافرتْ فانني اتبعها الى اقاصي البلاد . واذا منعني حاكم الجزيرة القيت بنفسي في البحر وسبحت اليها . فان البحر لا يكون اشد ظلماً لي من البر . واذا متُّ فيه متُّ على مرأى منها . فيا ايتها الام البربرية . يا ايتها الام القاسية . ليقدر الله لهذا البحر الذي تدفعين ابنتك اليه ان لا يردها اليك . ليقدرْ لامواجه ان تاتيك بجثتي وجثتها متدحرجتين بين الحجارة على الشاطئ لتحزني على صنيعك هذا حزناً ابدياً »

فلما اتى على هذا الكلام اخذته من ذراعه لان اليأس كان قد اضاع رشده وكانت عيناه تتقدان بجمر الغضب والعرق يتصبب على وجهه . فارتاعت فرجيني من منظره فقالت له : « اقسم بسعادتنا الماضية يا اخي انني اذا عشت فانني لا اعيش الا لك . ويشهد على ذلك هؤلاء الذين ربوني وهذه السماء التي تسمع كلامي وهذا البحر الذي سيحملني وهذا الهواء الذي لم ادنسه قط بقول كاذب »

فعند هذا الصوت صوت الحبيب ذاب غضب بولس كما يذوب الثلج لدى حر الشمس وجرت من عينيه دموع غزيرة . اما امه فكانت بجانبه تمزج دموعها بدموعه . واما مدام دي لاتور فانها اخذت تقول « لقد كادت نفسي تتمزق من الحزن . فلا كان هذا السفر فاننا عدلنا عنه » ثم التفتت اليَّ وقالت « لا تسافر فرجيني بعد الآن نخذ بولس اليك ليستريح فاننا جميعاً لم ننم منذ ثمانية ايام »

١٤

الفراق

فقلت لبولس حينئذ ان يذهب معى ليصرف الليل عندي فلم يمانع في ذلك . ولكنه ما اشرق الفجر حتى عاد الى هنا

غير انه لم يصل الى هذه الصخرة حتي وجد الزنجية ماري واقفة عليها وهي تنظر الى البحر . فطار صواب بولس فصرخ بها من بعيد « اين فرجيني » فنظرت الزنجية الى سيدها بولس واخذت تبكي . فاسرع بولس كالبرق الخاطف الى الميناء وهو ضائع الرشد فعلم منه ان فرجيني ركبت قبل الفجر سفينة كانت تنتظرها واقلعت السفينة بها . فعاد بولس الى الكوخ صامتاً ثم قصد ذلك الجبل الشامخ فتسلقه حتى بلغ قمته ثم القى نظره منه الى البحر . فوجد في البحر سفينة بعيدة كانها نقطة سوداء . فالوى راسه هنالك على الصخور والحجارة واخذ يبكي بكل ما في عينيه من الدموع . ولقد وجدته في هذه الحالة على الجبل فعدت به الى البيت . فلما رأى ام فرجيني استشاط غيظاً وعنفها لانها خدعته . فاجابته ان الحاكم مع بعض من المرسلين جاءوا قبل الفجر عند هبوب الريح واخذوا فرجيني بالقوة لارسالها الى عمتها لان السفينة عزمت على السفر في تلك الساعة . وقد اخذوها من غير ارادتنا ولا ارادتها لانها كانت في حالة يُرثى لها من الحزن . فقال بولس « كان يجب على الاقل ان اودعها قبل سفرها لاقول لها « صفحاً يافرجيني اذا كنتُ قد اسأت اليك بامر . افلا تصفحين لي . وكنت اقول لها ايضاً : بما انني لا اراك بعد الآن فالوداع الوداع يافرجيني . وعيشي بعدي مسرورة سعيدة » فلما سمعت مدام دي لا تور ومرغريت هذا القول صارتا تبكيان . فقال لهما بولس حينئذ « فتشا عن واحد غيري ليمسح دموعكما » ثم تركهما وهام على وجهه بين الآكام والاشجار

وكانت الشاتان تتبعانه وتثغوان فقال لهما « ماذا تطلبان مني فقد ذهبت التي كانت تطعمكما بيدها » ولما وصل الى نبع فرجيني اخذت الطيور تحوم حوله . فقال لها « مسكينة انتِ ايتها الطيور فانك لا تجدين بعداليوم تلك التي كانت تغذيك » ونظر الكلب "فيدل" يركض من مكان الى مكان كمن يفتش على ضائع فقال له « انك لا تجدها ابداً » . وكنا نحن نتبعه من بعيد من خوفنا على حياته فلما وصلنا اليه اخذت ام فرجيني تكثر ملاطفته وتسميه ابنها وصهرها والرجل الذي اختارته لابنتها . فخمد حزنه قليلاً ورضي بان يتناول شيئاً من الطعام . ولكنه لما جلس في مكانه على المائدة تناول من الطعام الذي

كانت تحبه فرجيني ووضعه في المكان الذي كانت قد اعتادت الجلوس فيه غير انه لم يلبث ان انتبه الى غيابها فعاد الى البكاء · فبكى معه الجميع ايضاً · و بعد ذلك اخذ يفتش عن الاشياء التي كانت تستعملها فرجيني كباقاتها الاخيرة والكاس التي كانت تشرب بها فجمعها وحفظها كآثار ثمينة · وكان يقبلها احياناً ويضعها في ثيابه. الا انه لما وجد ان حزنه مما يزيد حزن العائلتين رأى وجوب العودة للعمل فاخذ يصلح في الحديقة ما اخربته الزوبعة فيها

١٥

كتاب من الحبيبة

و بعد قليل اخذ هذا الفتى يميل الى الكتابة والقراءة · اما الكتابة فلكي يكتب لفرجيني واما القراءة فلكي يقف على جغرافية البلاد التي سافرت فرجيني اليها وعلى تاريخها ليعرف عادات اهلها. فعلمهُ القراءة والكتابة فلم يرتح الى كتاب من الكتب التي طالعها ارتياحه الى كتاب تليماك لانه كان قريباً من تصوراته الطبيعية · وقد خاف بعد مطالعته الروايات الاوربية وما رآه فيها من تقلب قلوب النساء ان يدب ذلك الفساد الى قلب فرجيني ايضاً · وقد زاد خوفه هذا ما سمعه من ان تلك الروايات هي وصف صحيح للهيئة الاجتماعية الاوربية

وفي الواقع ان فرجيني مرَّ عليها سنة ونصف في فرنسا دون ان يرد منها خبر لامها · ولكن مدام دي لاتور كانت قد علمت بوصولها سالمة الى منزل عمتها · غير انها بعد ذلك تناولت في ذات يوم من احدى السفن المسافرة الى الهند رزمة صغيرة وكتاباً بخط فرجيني· ولما فتحت هذا الكتاب قرأت فيه ما يلي :

« امي المحبوبة

« كتبتُ اليك قبل هذا الكتاب عدة كتب لم يردني جواب منك عنها · فخشيتُ ان لا تكون قد وصلتك لانني كنت ادفعها الى خادماتي هنا · ولذلك رايتُ ان ارسل اليك هذا الكتاب على يد احدى صديقاتي في المدرسة لعله يصلك · وطيه عنوان هذه الصديقة فارجو ان ترسلي جوابك اليَّ على يدها

ثم ان الفتاة تقص على امها في هذا الكتاب ما حدث لها منذ وصولها الى منزل عمتها · فقالت ان عمتها سألتها حين وصولها ماذا تعلمتِ فاجابتها انها لم تتعلم سوى تدبير

المنزل وانها تجهل القراءة والكتابة فاجابتها انها تعلمت علم الخادمات فقط . ثم ارسلتها في اليوم التالي الى مدرسة في دير كبير قرب باريز واخذت تتلقى فيها القراءة والكتابة والتاريخ والجوغرافيا والحساب والصرف وامتطاء الخيل . ولكنها لم تكن تميل الى هذه الامور كلها « لانني اشعر بانني فتاة مسكينة قاصرة كما يقولون عني » ولكن لطف عمتها يعزيها قليلاً فانها ابتاعت لها عدة اثواب وحلل فاخرة وجعلت في خدمتها سيدتين لابستين افخر الملابس . غير انها نزعت عنها اسم « دي لاتور » ابيها وسمتها باسم عيلة امها . ولقد ساءها ذلك لانها تحترم تذكار ابيها ولكنها مع ذلك تحب الاسم الذي كان لامها قبل زواجها . قالت « وانني الآن اعيش في بذخ وترف تام ولكنني لا املك شيئًا مما حولي . فانا في وسط الثروة افقر مما كنتُ في وسط الفقر لاني لا اقدر ان اعطي شيئًا لاحد ولا امسح دموع احد . ولذلك عدت الى صناعة يدي لعلي استطيع ان اصنع خيرًا بها . فصنعتُ عدة جوارب كما اعتدت صنعها وارسلتها اليك لتفرقيها على الجميع . وقد بعثت اليك ايضًا بعدة انواع من بزور الازهار فان ازهار اوربا اجمل من ازهارنا وفي البرية هنا كثير من الزهر الجميل ولكن لا يهتم به احد ولا يلتفت اليه احد . ولا ريب عندي ان الكيس الذي قدمته لك متضمنًا هذه البزور لهو اثمن عندك من كيس النقود الذي كان سبب فراقنا ومنشأ دموعي . ولقد اوصيتني قبل سفري بان ابلغك ما يسوءني و يسرني فانا اقول لك الآن بانه لم يسرّني شيءٌ منذ سفري . واما حزني فانني اخففه بافتكاري انني ما جئت الى ههنا الا بامرك بناءً على ارادة الله . ولكن اشد عذاب لدي هو انني لا اجد من يحدثني عنك وعن الارض التي نشأت فيها . واذا رمتُ ان احادث في ذلك احدى السيدتين الموكلتين بخدمتي فانها تقول لي « اذكري ايتها المدموازل انك فرنسوية وانه يجب عليك نسيان تلك البلاد المتوحشة » ولكن هاتين السيدتين لا تعلمان انني انسى نفسي ولا انسى الارض التي ولدتُ فيها والتي لا تزال تسكنها امي . ثم انهم يقولون ان تلك الارض متوحشة وفي الحقيقة ان هذه البلاد هي البلاد المتوحشة لانني اعيش فيها وحدي »

وقد اخبرت فرجيني امها في هذا الكتاب ان خالتها تمنعها من الكتابة لانها تخاف ان تحول المراسلات بينها و بين ما عقدت عليه عزمها . ذلك انها كانت تفكر بتزويجها برجل غني من اكابر رجال البلاط . وكان هذا الرجل يزور فرجيني في المدرسة مع عمتها و يقول انها تعجبه كثيرًا . ثم انها في خاتمة هذا الكتاب توصي امها خيرًا بالزنجي دومنيك

وزوجته ماري وترجو منها ان تلاطف قليلاً من قبلها الكاب « فيدل » الذي وجدها في الحرش حينما تاهت فيه

فلما تلي هذا الكتاب في العائلة غضب بولس في بدء الامر غضباً شديداً لانه رأى ان رفيقته اهتمت بكل شيء في البيت حتى الكاب « فيدل » واهملته هو . ولكن بولس كان يجهل ان المراة مهما كانت رسالتها طويلة فانها لا تضع اعز فكر لها الا في آخرها . فقد كتبت فرجيني في الكتاب حاشية سالت فيها بولس ان يبزر من بزور البنفسج في نبعها وان يسمي الصخرة التي تحادثا عليها قبل سفرها « صخرة الوداع » اكراماً لها . ولما اخذ بولس هذه البزور وجد انها موضوعة في كيس صغير بسيط . ولكنه لما تامل في هذا الكيس وجد عليه الحرف (ب) والحرف (ف) وهما الحرفان الاولان من اسم بولس واسم فرجيني موسومين على جانبه بشكل متقاطع وهما مصنوعان من خيوط شعر لا ريب في انه من شعر فرجيني لانه كان لامعاً جميلاً

فسرَّ بولس بهذه الهدية الجميلة وازرفت العائلة دموع الفرح لدى قراءة هذا الكتاب . وقد ارسلت امها من قبل الجميع تخيّرها بين الاقامة حيث هي او الحضور الى وطنها الاول . اما بولس فانه كتب اليها كتاباً يشكرها على هدية البزور وقد قال لها انه سيضم بزور اوربا في ارضهم الى بزور افريقيا كما ضمت فرجيني اسمها الى اسمه رسماً في الكيس . ثم ارسل اليها بضع ثمار من نرجيلة النبع ولم يُرسل اليها غيرها ليحملها شوقها اليها على العودة قريباً . وقد الح عليها في الرجاء بان تعود بسرعة لان العائلتين لم تكونا تجدان هناء وسروراً بعد سفرها

ولكن مرَّ على هذا الكتاب ستة اشهر دون ان يرد من الفتاة جواب عنه . فقلق بولس لذلك . ومما زاد قلقه ان بعض السفن القادمة من اوربا كانت تشيع بين السكان ان فرجيني ستقترن قريباً بسيد من رجال البلاط . وبعضها قال بل انها اقترنت به وتم هذا الامر . وكان بولس قد قرأ الروايات الاوربية وراى فيها ما فيها من الاشياء التي من هذا القبيل . فوقع في الياس . وهكذا ما ابتداء يتعلم ويطالع حتى ابتداء عذابه وشقاؤه . وكان احياناً يزورني ليجلو الهمّ عن صدره فيقصدني في كوخي على شاطىء النهر الذي يجري على موازاة « الجبل الطويل » حيث اعيش بعيداً عن الناس بلا زوجة ولا اولاد ولا احد يخادمني

١٦

فلسفة المؤلف في الانفراد

ويقول عارفوه انه كان يتكلم هنا عن نفسه لانه عاش منفرداً عن الناس

ذلك لانني اعتبر ان الانسان اذا لم يجد في هذا العالم زوجة صالحة تشاركه في السراء والضراء لانطباق اخلاقها على اخلاقه فان اسهل عيش يعيشه بعد ذلك هو عيشه منفرداً وحده . وكل انسان تالم من الناس واصابه شرهم واذاهم يطلب الانفراد عنهم من طبعه . ولذلك، ترى ان الشعوب التي طرأت عليها المصائب الكثيرة كالمصريين واليونان والهنود والصينيين والايطاليين يكثر فيها ظهور افراد يجنحون الى الانفراد ومعيشة النسك والزهد. وسببه ان الانفراد في الخلاء يُعيد الانسان الى السعادة الطبيعية ويدفع عنه مصائب الاجتماع . ولا عجب في ذلك فان هيئتنا الاجتماعية التي تتنازعها عوامل الشقاء والشقاق والاوهام تجعل النفس في اضطراب دائم . فهي تتدحرج فيها من فكر الى فكر ومن عثرة الى عثرة ولا همّ لها الا الطمع وحب السيادة على الغير . واما في الوحدة فانها تنفض عن نفسها فيها هذا الاضطراب وتعود الى هدوء الطبيعة وخالقها . فكانها نهر جارٍ يحمل ما في طريقه من الحجارة والغبار والتراب فيكون دائماً عكراً كدراً ولكنه متى صبّ ماءه في احواض واسعة ساكنة صفت مياهه من كل كدر لرسوب الاكدار في القعر وصارت نجوم السماء وخضرة الارض تنعكس فيها من صفائها . ومن مزايا الانفراد ايضاً انه يجلب الصحة للبدن كما يجلب الصحة للنفس لان اطول الناس عمراً من عاشوا خارج دائرة الناس كبراهمة الهنود ومن حذا حذوهم . ويخيل لي ان الانسان لا يستطيع ان يذوق سروراً حقيقياً في هذه الحياة ان لم تكن له اوقات يخلو بها الى نفسه ويجعل في باطنه مكاناً منفرداً لا يخرج منه رايه الا فيما ندر ولا يدخل اليه راي غيره ابداً . ولست ازعم بذلك انه يجب على الانسان ان يعيش منفرداً كل الانفراد فانني لا اجهل انه مرتبط بباقي الجنس البشري وعليه واجبات لباقي اجزاء الطبيعة . وانما اعني بذلك انه كما ان الله خلق في الانسان للارض التي يعيش فيها اعضاء تلائمها وتلائم عناصرها فجعل القدمين للارض والرئتين للهواء والعينين للنور دون ان نستطيع تغيير وظائف هذه الاعضاء او العبث بها فكذلك خلق لنا عضواً خصّ نفسه به لانه مصدر الحياة واريد بهذا العضو القلب الذي هو مصدر الحركة . ولذلك يميل القلب الى الانفراد للتامل في عظمة الله والطبيعة التي صنعها

فانا اذاً اعيش وحدي في البرّ بعيداً عن الناس الذين اردت خدمتهم فكان جزائي عندهم الاذى والاضطهاد · وقبل ان اقيم في هذه الجزيرة طفت اوربا واميركا وافريقيا لاختار لي مكاناً · فوقع اختياري على هذا المكان لما فيه من الهدوء السائد فضلاً عن لطف الهواء · فبنيت لي كوخاً على شاطىء نهر تحت شجرة كبيرة وانشات حقلاً ازرع فيه ما احتاج اليه وجئتُ ببعض كتب اطالعها لتجعلني مطالعتها افضل مما كنت قبلها · وهذه الكتب تساعدني على احتمال معيشة الانفراد لانني متى طالعتها ورايت ما فيها من الاختباط السائد في الهيئة الاجتماعية التى تصفها وقابلت بين هذا الاختباط وبين الهدوء السائد حولي عرفت منه خير معرفة حقيقة السعادة التى انا فيها · فكانني اذوق بها لذة سعادة سلبية · كرجل نجا من الغرق وجلس على صخرة بعيداً من الامواج المزبدة والزوابع المهلكةُ يسر ويفرح بانه صار في مامن منها

ولما صرتُ بعيداً عن الناس ذهب بغضي لهم وانقلب الى رحمة فصرت اشفق عليهم· وجعلت امدّ يدي لمساعدة كل من يقع تحت يدي منهم · ولكن لم يكن احد منهم يقبل مساعدتي الا البسطاء · فانه حينما كان ياتيني بعض الناس ليطلب مساعدتي كان يظن انني اساعده للوصول الى الثروة والجاه · ولما كنت احاول اقناعه بالعودة الى الطبيعة للمعيشة فيها بهدوء وسلام كان يحول وجهه عني ويسخر مني · فكانّ كل واحد من هؤلاء البشر المساكين نشوان من خمرة شقائه ومصائبه · وهو يفتخر ويعتزّ بها · وكان بعد استماعه كلامي يحسبني اشد شقاء منه فيحاول اقناعي بتغيير معيشتي ودفعي الى تيار المعيشة الدنيوية· اما انا فاذا كنت احادث جميع الناس والاطفهم فانني لا افتح خفايا قلبي لاحد منهم · ولذلك كنت اتركهم وشانهم يحدثونني بما يحدثون · وكنت وانا جالس امام كوخي اراجع في نفسي ما شهدته في العالم من الزحام والالتحام والاصطدام على ملاذ الحياة ومناصبها ومفاخرها فاشبه الناس الذين اقدموا على ذلك بالامواج التي تتكسر على الصخور وهي مزبدة غيظاً وحنقاً ثم تذهب ولا تعود · اما انا فانني اشبه نفسي برجل مستسلم في الطبيعة الى مجرى النهر وهذا النهر يجري به بهدوء الى اوقيانوس المستقبل العظيم الذي لا حد له· ومن هذا النهر الجاري بي بهدوء وسلام ترتفع نفسي الى خالقها الابدي وتجنح الى عالم افضل من هذا العالم

١٧

بين شيخ وفتى

ففي ذات يوم جاءني بولس وانا جالس امام الكوخ في مكاني المنفرد في الحرش وبدأ يكشف لي ما في صدره من اسباب الياس والحزن . ولا باس بذكر هذه المحادثة على سبيل المخاطبة

قال بولس — نفسي حزينة حتى الموت . فان مدموازل دي لاتور سافرت منذ سنتين ونصف وقد مرَّ عليها ثمانية اشهر ونصف دون ان يردني خبر منها . فلا ريب انها هجرتني وذهب ذكري من قلبها لانها غنية وانا فقير لا املك شيئاً . فماذا ترى . اسافر الى فرنسا واسعى فيها للوصول الى الجاه والثروة لعل مدام دي لا تور ترضى بتزويجي بابنتها

فاجاب الشيخ — كلا يا بني . لا تسافر فانك لا تستطيع ان تصنع في فرنسا شيئاً . ذلك ان الوظائف والمناصب فيها محصورة في بعض العيال الكبرى والدوائر العالية . وان كنت تعتمد على الملك فاعلم ان الملك شمس تحيط به غيوم الكبار والسراة من كل جانب ولذلك لا تطمع في ان يقع عليك شعاع من نوره . نعم لقد كان هذا الامر مالوفاً في الزمن القديم وكان سبباً في احياء المواهب وانماء قوى الافراد المهملين كما تحيا بالزراعة الارض الجديدة المجهولة . ولكن قد مضى اليوم ذلك الزمن . وصار الملوك العظام الذين يكتشفون اصحاب المواهب و يساعدونهم احياءً لمواهبهم اندر من كل شيء نادر . واما عامة الملوك فلا يصغون ولا يلتفتون الا للحواشي التي تحيط بهم

فقال بولس — ولكنني الجاء الى احد هؤلاء الكبار فيحميني لدى الملك و يقربني منه

فقال الشيخ — اذا رمتَ ان يحميك الكبار وجب عليك ان تخدم اطماعهم وتمدح اهواءهم . وانت عاجز عن ذلك لانك شاب ابي النفس مستقيم

فقال بولس — ولكني ابذل جهدي لانال ثقتهم . فانني اكون شجاعاً في الحرب جريئاً في السلم اميناً حافظاً لكلامي ثابتاً في صداقتي قائماً بواجباتي . فلا بدَّ ان يلتفت اليَّ بعد ذلك احد منهم ويحميني ويمهد لي سبيل الظهور في العالم كما كان يصنع المتقدمون على ما قراته في الكتب التي اخذتها منك

فقال الشيخ — يا صديقي . لقد كان اليونان والرومان يحترمون الفضيلة ويحمونها

حتى في دور انحطاطهم لانهم كانوا يحبونها . اما نحن فاننا لا نعبأ بها . وانني اعرف كثيرين من رجالنا العظام نبغوا في كل فن وعلم ولست ارى واحداً منهم قد تقدم وارتقى بمساعدة احدى العيال الكبيرة عندنا . فدع الكبار وشانهم لانهم لا يهتمون الا بانفسهم ولا قيمة لغير الذهب عندهم (١)

فقال بولس — اذاً انا اترك الكبار وانضم الى احدى الدوائر او الى رجال الاعمال والاموال

فقال الشيخ — حينئذ يجب عليك ان تصنع صنعهم فتدوس الضمير والواجب لجمع الثروة والمال

فقال بولس — كلا ثم كلا لانني لا اطلب الا الحق ولا اعمل الا بالواجب

فقال الشيخ — فحينئذ يبغضونك بدلاً من ان يساعدوك لان الناس قلما يهمهم الحق ولا يبغون الا قضاء اغراضهم

فقال بولس — ما اشد تعاستي اذاً . فان كل شيء ينبذني في هذا العالم . فرجيني تركتني والناس لا يساعدونني

فقال الشيخ — يابنيّ لا تتخذ لك مساعداً غير الله ولا تطمع في خدمة احد غير الانسانية . فان لكل فريق من الشعوب والملوك والعيال والدوائر اوهاماً وترهات . فاذا اردتَ خدمتهم وجب عليك احياناً ارتكاب الرذائل ارضاء لهم . اما الله والانسانية فلا يطلبان منك غير الفضائل (٢)

« ولكن ما الذي يوجب عليك طلب الامتياز عن باقي الناس يا بنيّ . ان هذا الطلب مناقض للاميال الطبيعية لانه لو عمّ لاصبحت الارض ميداناً للخصام والنزاع بين الناس . فانبذ هذه الاوهام وارضَ بحالتك لانك فتى ذو ضمير حر لا تجعل سعادتك متوقفة على آراء الصغار فيك كما يصنع الكبار ولا تزحف تحت اقدام الكبار طلباً للرزق . وانت الآن والحمد لله في بلاد لا تحوجك المعيشة فيها الى غش الناس والحط من كرامتك لديهم وارتكاب المحرم معهم رغبة في جمع المال . فانك في حالة تتيح لك ممارسة كل الفضائل

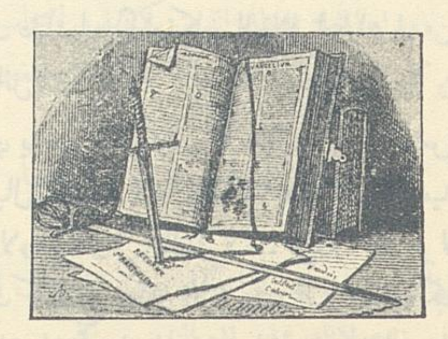
---

١) قيمة الفضيلة والعلم والادب في العالم . وقد عربنا هذا الفصل باسهاب حرصاً على ما فيه من الفوائد الفلسفية والادبية التي نوجه اليها خاصةً انظار القراء ٢) الاقتصار على خدمة الله والانسانية

فتقدر ان تكون كريماً مخلصاً مهذباً مقتصداً معتدلاً عفيفاً تقياً حليماً محباً للحقيقة والحق دون ان تُرشق بسهام التهكم لالتزامك هذه الفضائل · وقد منحتك السماء صحة في الجسم والعقل وحرية وضميراً حياً واصدقاء · فماذا تريد اكثر من هذا · ان الملوك الذين تبغي التقرب منهم التماساً لنعمهم ليسوا بسعداء الى هذا الحد

فقال بولس — آه ولكن تنقصني فرجيني · فانني معها املك كل شيء وبدونها اكون كمن لا يملك شيئاً · وبما انني لا استطيع الحصول على الثروة بوسائط شريفة للوصول الى فرجيني فانا اطلبها من طريق العلم والادب · فان الانسان لا يضطر في هذه الطريق الى دناءة وضعة · فماذا تقول اذا درستُ والَّفت وخدمت وطني بالعلم لابلغ به اسمى قمم المجد والفخر فاستحق حينئذ فرجيني

فقال الشيخ — ان المواهب العقلية يابني (١) اندر من الثروة والجاه في هذه الحياة · وهي افضل منهما لانها لا تزول عن صاحبها · ولكنها لا تُكتسب الا بجهد شديد وقهر النفس ونبذ الملاذ · وفضلاً عن ذلك فانها تجلب معها احساساً شديداً يجعلنا تعساء في الباطن لتأثرنا من كل شيء ويجلب لنا في الخارج عداوة الناس واضطهادهم · ومع ذلك فماذا يرجو الناس من النفع بواسطة الكتب · هل رايتَ في الكتب كتاباً كالانجيل يدعو البشر الى المساواة والصداقة والاخاء والسلام والدعة · ومع ذلك فان هذا الكتاب بقي مدة قرون منشئاً للخلاف بين



الانجيل والسيف

البشر وسبباً للنزاع · فكم من ظلامة حدثت باسمه في العالم ولا تزال تحدث الى الآن · فقل لي بعد هذا مَن من الناس يرجو نفع الناس بكتاب · ثم الا تذكر ما اصاب جميع الفلاسفة

١) المواهب العقلية وحظ الحكمة والحكماء في العالم

الذين دعوا الناس الى الحكمة · فان هوميروس الذي كساها ابياتاً في غاية الجمال كان شحاذاً يطلب الصدقة في زمانه · وسقراط الذي القى على الاثينيين دروساً جميلة ببلاغته وبقدوته جرع السم من ايديهم بحكم قانوني · وتلميذه العظيم افلاطون بيع بيع الرقيق بامر من الامير الذي كان يحميه · وفيثاغورس الذي كان قبلهم يطلق الانسانية حتى على الحيوانات احرقه الكرتونياتيون وهو في قيد الحياة · فمن ذلك يتضح لك ان بلوغ المجد العلمي والادبي يستوجب الفضيلة اولاً والاستعداد لتضحية النفس ثانياً · ولكن هل تظن ان الاغنياء والكبار يعبئون بالعلم والادب · كلا لا تنكر بذلك · فانهم لا يعبئون الا بالذهب · ولكن مع انهم لا يهتمون بذلك فان صناعة الادب صناعة مقدسة وهي جديرة بالمصدر السماوي الذي صدرت عنه · واعظم شرف للانسان على هذه الارض هو ان يكتب كتاباً لانه به ينير عقول الشعوب و يعزى الحزانى ويخفف احمال المتعبين · واي رجل لا يضرب صفحاً عن مصائب الحياة ولا يستخف متاعبها اذا كان يعلم ان كتابه سينتقل من قرن الى قرن ومن جيل الى جيل كمصباح ينير الظلمات وحاجز يصدّ الضلال وانه من المكان الصغير الذي عاش فيه يخرج مجد باهر يمحو نجد كثيرين من الملوك الذين تفنى آثارهم وتنسى التماثيل التي اقامها لهم المتزلفون اليهم مع ان آثار ذلك الكاتب لا تزول

فقال بولس — آه · انني لا اطلب هذا المجد الاَّ لارجعه الى فرجيني واكسوها اياه · ولكن بما انك ترى انه لا سبيل الى الوظائف والشرف في العالم الا من طريق المال وان الناس لا يحترمون شيئاً غير الذهب فما قولك في ان اسافر الى بنغال للاتجار وجمع الثروة فيها · هاءنذا مسافر

فقال الشيخ — وهل تترك امك وام فرجيني وحدهما يا بني

فقال بولس — ولماذا شجعتني قبلاً على السفر الى هناك

فقال الشيخ — لما شجعتك على السفر كانت فرجيني هنا تقوم مقامك

فقال بولس — ان عمة فرجيني الغنية تساعد امها بمالها فيستغنون عني

فقال الشيخ — ان الاغنياء يا بني لا يساعدون احداً غير الذين يتزلفون اليهم وتكون مساعدتهم مما يكسبهم الشهرة بين الناس

فقال بولس — ما اشقى اوربا واتعسها · فما هذه الاخلاق والعادات ؟ ولماذا ذهبت فرجيني اليها · بالله اصدقني يا ابتاه هل انها تبقى ثابتة على حبي بعد اقامتها في بلاد كتلك البلاد

فقال الشيخ — لا ريب عندي يا بني انها تبقى ثابتة في حبك لانها فتاة فاضلة

فانطرح بولس حينئذ على عنقي وقبلني ثم قال

— هل تظن يا ابتِ (١) ان نساء اوربا محتالات كما ورد عنهن في الروايات

فقال الشيخ — يا بني ان النساء يكنَّ محتالات في كل مكان يكون فيه الرجال ظلمة عتاة لان الاحتيال والرياء ينشئان عن الضغط دائماً

فقال بولس — وكيف يكون الرجال ظالمين للنساء

فقال الشيخ — يكون ذلك بتزويجهنَّ من غير استشارتهن · فيزوجون الفتاة مثلاً بشيخ والمراة النبيهة الحساسة برجل خامل

فقال بولس — ولماذا لا يزوجون الفتى بالفتاة والكهل بمن تماثله من النساء

فقال الشيخ — ذلك لان الرجال لا يتزوجون الا متى جمعوا مالاً ولا يجمعون المال الا في سن الكهولة

فقال بولس — وما حاجة الناس في الزواج الى الثروة والمال

فقال الشيخ — ليقدروا على صرف ايامهم في السعة والبطالة

فقال بولس — ولماذا لا يشتغلون ولا يعملون شيئاً · فانني انا اشتغل واعمل

فقال الشيخ — ذلك لانهم يحتقرون عمل اليد (٢) خصوصاً الفلاحة · ولذلك يحترمون الصانع اكثر من الزارع

فقال بولس — ماذا تقول ؟ وهل في الناس من يحتقر الفنَّ الذي يغذي الناس ويطعمهم · لم افهم شيئاً من كلامك

فقال الشيخ — لا استغرب ان لا تفهم شيئاً من كلامي لان من ربي مثلك في الطبيعة لا يدرك مفاسد الاجتماع

فقال بولس — ومع ذلك فان الاغنياء (٣) يكونون سعداء لانهم يدركون كل ما يتمنونه ولا ينقصهم شيء

فقال الشيخ — اخطأت يا بني فان الانسان متى ألف الملاذ والمسرات لم تبقَ لها قيمة عنده · ولذلك ترى ان الاغنياء لا يجدون في ملاذهم من اللذة نصف ما يجده الفقير في

---

١) الرجال والنساء والزواج ٢) احتقار الزراعة ٣) الاغنياء والفقراء

ملاذه منها . وقد يشمون الف وردة ووردة دون ان يهتموا لها ولكن شوكة واحدة تبقي اثراً بليغاً في نفوسهم . وبناء عليه فان حزن الغني في وسط مسراته وملاذه انما هو عبارة عن شوكة بين الازهار . وسرور الفقير في وسط احزانه عبارة عن زهرة بين الاشواك . ولذلك تؤثر اللذة في الفقير مهما كانت ضعيفة اشدّ من تاثيرها في الغني . وفضلاً عن هذا فايهما اولى للانسان : ان يكون في خوف دائم مما يحدث دون ان يكون له امل في شيء مقبل . ام ان يكون لا يخاف شيئاً مما يحدث ولا يملك شيئاً غير الامل في المستقبل . فان الحالة الاولى حالة الغني والحالة الثانية حالة الفقير . ولكن كلتا الحالتين في رايي طرفان . وما السعادة الا وسط بينهما وهي السعة القليلة والفضيلة

فقال بولس — ماذا تريد بالفضيلة وما تعريفها عندك (١)

فقال الشيخ — لستَ في حاجة الى تعريف الفضيلة يابني لانك تمارسها في كل يوم وذلك بانك تساعد اهلك بعملك . ومع ذلك فانا اعرّفها لك : ان الفضيلة هي مغالبة الانسان نفسه لاجبارها على صنع الخير للغير من اجل الله وحده لا من اجل مكافأة من الناس

فصاح بولس — اذاً ما المع فضيلة فرجيني . فانها لم تسافر من هذه الجزيرة الا من اجل الفضيلة فلا ريب ان الفضيلة ستعيدها اليها

وعلى ذلك فقد كان افتكاره في عودتها يثير تصوراته واحلامه دائماً وكان شاغلاً لباله في الليل والنهار . وكان احياناً يعاوده الامل فيقول ان السبب في انقطاع اخبارها عن اهلها هو انها ركبت احدى السفن عائدة الينا . وحينئذ كان يفرح فرحاً شديداً ويمني نفسه بالاقتران بها قريباً . واحياناً كان اليأس يتغلب على نفسه فياتيني ذليلاً صاغراً ويقول : ان فرجيني قد نستني لان عمتها ازوجتها باحد اكابر البلاط فاضاعها حبها للثروة والجاه ودلت بذلك على انها بلا فضيلة . اذ لو كانت ذات فضيلة لما تركت امها وتركتني . ومع ذلك فالفضيلة في هذه الحياة لا تصلح الا لانشاء الروايات . فماذا اصنع انا . انني سئمت كل شيء ولم يعد لي جلد على العمل ولا صبر على المعاشرة والكلام . آه ليت الحرب تدور رحاها في الهند لاذهب واموت فيها

فكنت اقول له : تأنَّ يابني . فان الشجاعة التي تسهل لنا اقتحام الموت انما هي شجاعة

(١ تعريف الفضيلة تعريفاً بسيطاً جميلاً

ساعة ثم تزول . وربما كان سببها التماس استحسان الناس واعجابهم(١) وانما الشجاعة الحقيقية هي تلك التي تجعلنا نحتمل متاعب الحياة اليومية من غير ان يكون هنالك احد يشهدها او مَن يثني عليها . فاحتمل متاعبك بجلدٍ وصبرٍ اذا كنت تحب ان تكون شجاعاً حقيقياً . فان الصبر والجلد هما شجاعة الفضيلة

فقال بولس — اذا كان هذا هكذا فلست اذًا بذي فضيلة . آه انني خسرت كل شيء في هذه الحياة

فقلت له : لا تيأس سريعاً فان الفضيلة ليست من ملازمات الانسان لان اختلاف العواطف والاهواء في العالم واحتكاكها يلقي الانسان في اضطراب دائم ويسدل على عقله حجباً من الظلام . ولذلك يجب عليه ان يستنير دائماً من المنائر التي يبدد نورها هذا الظلام : واريدبها منائر الآداب اي كتب الادب (١)

« فالاداب يا بني عون الهي وهي اشعة من الحكمة الرائعة التي تحكم العالم . والانسان لم يتعلّم استنزالها الى الارض الا بوحي او شبه وحي سماوي . وهي شبيهة باشعة الشمس من حيث انها تنير وتسرّ وتبث الحرارة في النفس . وحرارتها حرارة الهية . ومن خواصها انها تسكّن الشهوات وتكبح جماح الرذائل وتهيىء النفس لقبول الفضيلة بما تبسطه امامها من امثلة افاضل الناس الذين تذكر حوادثهم . فكانها طائفة من بنات السماء ينزلن الى الارض ليطردن هموم الجنس البشري ويسلينه في متاعبه . واذا نظرتَ الى اعاظم الكتاب الذين نبغوا في العالم وجدت انهم لم ينبغوا الا حين الحاجة اليهم والى مبادئهم وان الزمن الذي نبغوا فيه كان اشد الازمان على مواطنيهم . فكانهم يُرسلون خاصةً لانارة بني جنسهم وتبديد همومهم . فاقراء يا بني . اقراء وطالع فان الحكماء الذين كتبوا الكتب قبلنا انما هم مسافرون تقدمونا في طريق المصائب وهم يمدون بكتبهم ايديهم الينا لمساعدتنا في طريقنا حين يكون جميع الناس قد تركونا وتخلوا عنا

فقال بولس — لست في حاجة الى المطالعة اذا كانت فرجيني بجانبي فان رؤيتها تطرد كل هم وكل غم عني

فاجبته : اصبتَ في هذا فان الانسان لا يرتاح الى احد ارتياحه الى حبيبة تحبه . لان في المراة روحاً خفيفاً يطرد همّ الانسان وغمه وفي وجهها معانٍ لطيفة تزيل

(١) الشجاعة الحقيقية ٢) منائر الادب وظهور نوابغ الكتّاب

من جبينه كل تجعد وتامل وفي جبهتها من لوائح الثقة والاستسلام ما يدعو الى كل ثقة واستسلام(١)واية جبهة تبقى متجعدة لدى ابتسامها؟واي غضب يثبت لدى دموعها؟ ولكن فرجيني ستعود قريباً وهي ارق مما كانت يوم سفرها · فماذا تقول لها اذا شاهدت الحديقة مهملة · فشمر عن ساعديك واصرف اوقاتك في اصلاحها

١٨

العودة

فبناء على هذا القول عاود الامل بولس فصار يصلح الحديقة استعداداً لعودة فرجيني · وفي ذات يوم (وذلك في ٢٤ دسمبر سنة ١٧٤٤) نهض بولس من فراشه صباحاً فابصر على جبل « الاكتشاف » علماً منصوباً وهي علامة قدوم احدى السفن · فاسرع كالبرق الخاطف الى الميناء ليسال عن كتاب من فرجيني · ولما وصل الى الميناء وجد ان دليل تلك السفينة قد نزل في زورق الى البر وابلغ اولي الشان انها قادمة من فرنسا واسمها



بولس عائد بالكتاب

« سان جيران » ومحمولها ٧٠٠ طن واسم ربانها المسيو او بين · وانها واقفة على خمسة فراسخ من الشاطئ ولا ترسو في الميناء الا في ظهر اليوم التالي اذا وافقها الريح · ثم ان الدليل دفع الى الحاكم رزمة المراسلات التي جاءت بها السفينة من فرنسا. وكان في جملة هذه الرسائل

١) قال سنت بوف ان برناردين شرّف المراة ونفى عنها كثيراً من التهم بهذا التعريف البسيط الجميل لان غيره يعرفها بانها مخلوق طائش خفيف العقل

رسالة باسم « مدام دي لاتور » . فلما وقع عليها نظر بولس عرف خط فرجيني من عنوانها . فطار قلبه فرحاً . فتناول الرسالة بسرعة البرق وقبّلها وضمها الى صدره ثم انطلق كالريح عائداً الى المنزل . وكانت العائلة تنتظره حينئذ على صخرة « الوداع » فلما صار بولس على مقربة منها رفع الكتاب بيده ليريها اياه واشتد عدوه ليصل اليها . ولما وصل اخذت الكتاب بسرور شديد واجتمعت في كوخ مدام دي لاتور . ثم فضت ختامه وقرأته فوجدته مؤرخاً من سفينة سان جيران نفسها . ذلك ان فرجيني كانت قد حضرت في تلك السفينة . وقد قالت في هذا الكتاب ان عمتها اقترحت عليها الاقتران بسيد من اكابر البلاط فرفضت فقالت لها انها فتاة افسدت مطالعة الروايات عقلها ثم طردتها من قصرها ولم تمهلها ان ينقضي فصل الزوابع والعواصف بل اضطرتها الى السفر في الحال . الا ان ربان السفينة لم يتركها تنزل في زورق الدليل حين وصولهم الى الجزيرة خوفاً عليها من الامواج ولذلك بقيت في السفينة الى اليوم التالي

فلما قرأت العائلتان هذا الكتاب فرحوا فرحاً ما عليه من مزيد واخذوا يتعانقون ويهنئون بعضهم بعضاً . ولم يعد يُسمع في الكوخين الا صراخ الجميع « عادت فرجيني . عادت فرجيني » اما بولس فانه كان في هذيان شديد من الفرح . ثم انه اضرم مشعلاً واصطحب دومنيك وسار معه يقصد كوخي لاطلاعي على ذلك الخبر العظيم

وكانت الساعة نحو العاشرة مساء في ذلك الحين . وكنتُ قد دخلت الى كوخي ابغي الرقاد . فلما رايت النور من خلال اشجار الحرش وسمعت بولس يناديني من بعيد نهضت ولبست ملابسي . ولما وصل بولس الى الكوخ انطرح بين ذراعي قائلاً : لقد عادت فرجيني . فلنذهب الى الميناء لاستقبالها . لان السفينة ترسو فيها عند طلوع الفجر »

فسرتُ معه تحت جنح الظلام نقصد الميناء ونحن في غبطة وسرور . الا اننا لم نسر قليلاً حتى سمعنا وقع اقدام وراءنا فالتفتنا فابصرنا عبداً ضخم الجثة فسالناه الى اين يسير فقال « انني مرسل من جزيرة « تراب الذهب » لابلغ الحاكم ان وراء جزيرة العنبر سفينة راسية وهي تطلق المدافع التماساً للمدد والاعانة لان البحر في هياج شديد »

فقلت لبولس حينئذ هلمّ بنا الى جزيرة تراب الذهب فان تلك السفينة سفينة فرجيني . غير انني قلقت لهذا الخبر قلقاً شديداً . وكان القمر قد طلع من وراء الافق وحوله ثلاث دوائر سوداء . اما الريح فانها كانت هادئة ومع ذلك فان الغيوم كانت ترد من جهة البحر الى جهة البر بسرعة غريبة وتتكاثف فوق الجزيرة . وبينما كنا سائرين خيل لنا اننا نسمع

صوت الصاعقة ولكننا ما لبثنا أن تحققنا ان ذلك الصوت صوت مدافع السفينة التي كانت في البحر . فارتعدت فرائصي لهذا الصوت المنذر بالخطر بازاء ما كان في السماء من علائم الزوبعة . وبعد نصف ساعة لم نعد نسمع لتلك المدافع صوتاً بل ساد سكوت عميق . غير ان هذا السكوت كان اشد هولاً وادعى الى الخوف من اصوات المدافع التي كانت دليل الاستغاثة

ولما وصلنا الى البحر وجدناه في هياج شديد . وكان الناس مجتمعين على الشاطئ، يتحدثون في امر السفينة . فمنهم من كان يقول ان التيار ساقها الى البر بالرغم عنها فصارت في خطر شديد . ومنهم من زعم انها دخلت في خليج بين البر وجزيرة العنبر الصغيرة لانها ظنته الخليج الذي تمرّ به السفن القادمة الى الجزيرة . ولذلك لم يبق أمل في انقاذها . ومنهم من كان يضحك من هذه الاشاعات ويقول ان السفينة في امن وسلامة في عرض البحر وانه يراهن على جميع ماله مَن شاء مراهنته بهذا الشان ويبيت مستريح البال

اما انا وبولس فقد لزمنا الصمت واقتصرنا على الاصغاء . وكان البحر امامنا مغطى بضباب كثيف لا تنفذه الابصار ولذلك لم نرَ شيئاً سوى خيال بعيد علمنا انه جزيرة العنبر المشار اليها . وفي الساعة السابعة صباحاً سمعنا اصوات الطبول . وكان السبب في ذلك قدوم الحاكم مع شرذمة من الجند والسكان . ولما قدم الحاكم اقام الجند على الشاطئ وامرهم ان يطلقوا بنادقهم طلقة واحدة . فاطاعه الجنود . ولكن بنادقهم لم تنطلق حتى جاوبها صوت مدفع من البحر . فتاملنا حينئذ فرأينا خلال الضباب سواري السفينة وكانت قريبة منا حتى اننا كنا نسمع صفير المامور الذي كان يدير حركاتها . ومنذ هذه الساعة صارت السفينة تطلق المدافع بلا انقطاع . فامر الحاكم باضرام نار قوية ليراها رجال السفينة . فاضرم السكان النار . غير ان احدهم دنا منه وقال له : مولاي لقد سمعنا في الجبال في هذه الليلة اصواتاً غريبة . وصارت الاوراق في الاحراش تتحرك مع ان الريح ساكنة . وطيور البحر صارت تفد على الجزيرة وتلجاء اليها . فلا ريب ان الزوبعة قريبة

وفي الحقيقة ان الزوبعة كانت قريبة . فانه لم تاتِ الساعة التاسعة صباحاً حتى سُمعت من جهة البحر اصوات هائلة كاصوات امواج نهر عظيم تنصبُّ من جبال شامخة . فصاح جميع الحاضرين « اليكم الزوبعة . اليكم الزوبعة » . وفي الوقت ذاته كنست ريح عاتية الضباب الذي كان بين الجزيرة وجزيرة العنبر . فانجلت حينئذ سفينة « سان جيران » للابصار وعليها المسافرون يغصّ بهم ظهرها . وكانت راسية بين البر وجزيرة العنبر في

خليج لم تدخل اليه سفينة قبلها وهي واقفة على خمس مراسٍ اربع في مقدمها و واحدة في مؤخرها • وكان مقدمها موجهاً الى الامواج في عرض البحر فكانت كلما صدمتها الامواج ارتفعت السفينة حتى يظهر اسفلها ثم تنحدر بعد مرور الموج فيختفي جسمها هنيهة في انحدارها. وهكذا كانت الريح والامواج تدفعها الى الشاطئ بالرغم عنها •وكان الجميع يخشون من امر واحد وهو انقطاع المراسي التي في المقدم • فلم يلبث هذا الخوف ان تحقق لشدة البحر وقوة الريح • ولما انقطعت تلك المراسي ولم تبقَ السفينة مرتبطة بغير المرساة التي في مؤخرها دفعها الموج دفعاً شديداً الى الصخور • فصرخ جميع الحاضرين حينئذ صرخة واحدة • اما بولس فانه همَّ بان يلقي نفسه في البحر • فامسكته وقلت له : صبراً يا بنيَّ والا لقيت الهلاك. فاجابني اريد ان اموت او ان اذهب لاعانتها • وكان قد عاوده الغضب واليأس • فربطته انا ودومنيك بحبل من وسطه وابقينا طرف الحبل بايدينا ثم اذنت له بالنزول الى البحر • فخاض بولس البحر وهو تارة يسبح وتارة يمشي على الصخور حتى كاد يقرب من السفينة • ذلك لان الامواج كانت تصدم السفينة على الشاطئ ثم تنجزر عنها فيظهر القعر من تحتها فتبقى السفينة كانها تقريباً على يابسة لا على ماء • غير ان الامواج كانت تعود اليها بنشاط اشد وقوة اعظم فتدفع المسكين بولس عن السفينة مسافة بعيدة • فاصيب بولس بجروح عديدة في نخذيه ويديه من جراء السقوط على الصخور والتدحرج بين الامواج • وكاد احياناً يغمى عليه من التعب والالم • الا انه لم يكن يسترد قواه حتى ينهض ويحاول الوصول ثانية الى السفينة

ولما قذفت الامواج السفينة على الشاطئ قطع البحارة والربان الامل في انقاذها •ولذلك صار المسافرون يلقون بانفسهم الى البحر ليخلصوا سباحةً الى البرّ • واخذ البحارة يلقون في البحر البراميل والموائد والواح الخشب واقفاص الدجاج ليسبح المسافرون عليها و يستعينوا بها • فلم تمضِ على ذلك برهة حتى فرغ ظهر السفينة وخلا من المسافرين • وحينئذ بدا فيه منظر يستدرّ الدموع • فانه ظهر في رواق السفينة فتاة كانها ملاك سماوي وهي تمدّ يديها الى البحر نحو الفتى بولس الذي كان يحاول الوصول اليها • وكانت هذه الفتاة فرجيني نفسها • فانقبضت صدور الجمع الواقف على الشاطئ لهذا المنظر وارتعدت فرائصهم من خوفهم على تلك الفتاة • اما فرجيني فانها كانت تسلّم علينا بيديها فكانها كانت تودعنا الوداع الابدي • وكان جميع البحارة قد القوا بانفسهم الى البحر ولم يبقَ في السفينة غير بحار واحد • وكان هذا البحار عارياً من لباسه وهو ضخم الجثة طويل القامة كانه هرقل •

فدنا من فرجيني باحترام وجثا على ركبتيه امامها وسالها ان تخلع ملابسها ليوصلها سباحة الى البرّ . اما فرجيني فانها حوّلت نظرها بعظمة ورقة عن جسمه العاري وابعدته عنها . فيالحياء العذارى وطهارة عواطفهن . لقد ابت خلع ملابسها امام رجل حفظاً للطهارة وان كان في ذلك حتفها . وحينئذ اخذ الجمع الواقف على الشاطىء يصيح من كل جانب « خلصها خلصها » . فرام البحار ان يعود اليها ولكنه نظر في تلك الساعة منظراً هائلاً

ذلك ان موجة هائلة كانها طود شانخ دخلت في هذا الحين في الخليج بين البرّ وجزيرة العنبر واتجهت نحو السفينة بهياج شديد تتهددها بقلبها رأساً على عقب وتكسيرها تكسيراً . فلما رأى البحار هذا الخطر الهائل التى نفسه وحده في البحر ونجا بنفسه . اما فرجيني فانها ايقنت حينئذ بدنو الاجل . فوضعت احدى يديها على ملابسها والاخرى على قلبها ثم رفعت عينيها الى السماء بهدوء وثبات جاش ولبثت تنتظر وصول الموجة . فاشبهت بذلك ملاكاً يطير من هذا العالم الى العالم الثاني



فاشبهت بذلك ملاكاً يطير من هذا العالم الى العالم الثاني

فيا لك من يوم هائل حدث فيه حادث هائل . والوعتاه . ان البحر ابتلع كل شيء بعد مرور الموجة . ولم يعد يظهر اثر لفرجيني ولا للسفينة . اما الواقفون على الشاطىء فانهم اندفعوا الى البحر بالرغم عنهم كانهم راموا انقاذ الفتاة المسكينة . فدفعتهم بقايا الموجة عن الشاطىء مسافة بعيدة . واما البحار فانه خرج وهو يقول « وددت لو بذلت حياتي في سبيل انقاذ تلك الفتاة التي ابت النجاة فراراً من خلع ملابسها » اما انا ودومنيك فاننا انتشلنا بولس المسكين

من البحر وهو مغمى عليه والدم يجري من فمه واذنيه · فارسله الحاكم الى بعض الجراحين لمداواته · ثم رحنا نجول على الشاطىء لعل الامواج تدفع اليه جثة فرجيني · وكنا في حالة من الحزن يكل القلم عن وصفها . وصار اكثرنا يرتاب في وجود العناية الالهية بعد ما اصاب تلك الفتاة الصالحة · ذلك لان في مصائب الحياة مصائب تقع على غير مستحقيها فيزعزع وقوعها ثقة الحكيم مهما كانت ثقته عظيمة

ولما لم نجد جثة فرجيني على الشاطىء عدت مع دومنيك الى المنزل لاهيىء ام فرجيني لاستماع هذا الخبر · اما بولس فانه اخذ ينتبه من اغمائه فوضعه الاطباء في غرفة قريبة من الشاطىء · وحين وصولنا الى وادٍ هناك اخبرنا بعض العبيد ان البحر يقذف الى الشاطىء شيئًا كثيرًا من آثار السفينة في ميناء قريب ·فهرعنا الى هذا الميناء فوجدنا فيه جثة فتاة مدفون نصفها في الرمل · فتاملنا الجثة فوجدناها جثة فرجيني نفسها · فيا لذلك المنظر اللطيف والمريع معًا · فان عينيها كانتا مطبقتين كانها نائمة وملامح وجهها لم تتغير قط ·



نائمة نومًا ابديًا

ودلائل الهدوء والارتياح الباطني كانت مرسومة على جبينها · وانما كان على وجهها صفرة الموت تمازج حمرة الحياه · وكانت احدى يديها مضغوطة على ثيابها والاخرى على قلبها · فرفعتُ هذه اليد لانها كانت شديدة اليبس والضغط فوجدت تحتها صورة القديس بولس · فبكيت حينئذ بما في عينيَّ من الدموع لثبات حب هذه الفتاة لانني تذكرت انها وعدت بولس بانها تحفظ هذه الصورة الى آخر نسمة من حياتها · اما دومنيك فان عويله بلغ العنان · وكان يلطم نفسه ويبكي بكاء مرًا · ثم اننا نقلنا هذه الجثة الى احد اكواخ الصيادين وعهدنا بغسلها الى بعض النساء الوطنيات

وبينما كان النساء مشتغلات بذلك صعدتُ الى الكوخين لمقابلة ام بولس وام فرجيني ·

فلما رأتني هذه وحدي صاحت بخوف « اين ابنتي اين ابنتي » فبكيت وسكت لانني لم اجد جواباً . فلما رأت دموعي تحققت وقوع المصيبة فصاحت صيحة اليمة وسقطت مغمى عليها . وكانت تلك الليلة في الكوخين ليلة هائلة

اما بولس فقد جاء به في صباح اليوم التالي بعض الرجال يحملونه على محمل . وكانت حواسه قد عادت اليه الا انه لم يكن يقدر على النطق . فلما قابل ام فرجيني وامه اغرق الجميع في البكاء . ولكن سحنة هاتين الامين التعيستين استنارت برهة عند رؤية بولس كانهما تذكرتا انهما لم يفقدا الا نصف آمالها وقد بقي لهما النصف الآخر . وفي خلال هذا الوقت كان الحاكم يحتفل بجنازة فرجيني المسكينة . وقد كتم ذلك عن اهلها وعن بولس . اما هذا الاحتفال فلم يسبق له مثيل في الجزيرة . فان جميع السكان قاموا قومة واحدة لاكرام الفضيلة في جثة هذه الابنة التعيسة . فسار الجند امام نعشها منكسي السلاح ومشت امامها بنات الجزيرة بملابس بيضاء وسار الشعب وراءها وفي جملتهم فقراء الجزيرة وضعفاؤها يندبون ملاذ الضعف والفقر ويبكون بكاء شديداً

وبعد حفلة الجنازة صعد الحاكم الى الكوخين ليعزي الامين . ولما شاهد بولس في حالة الذهول والضعف قال له « انني راغب في خيرك وخير عائلتك . فسافر يا بني الى فرنسا وانا اوصي بك خيراً » ثم مدّ يده اليه . فجذب بولس يده من يده وصرف وجهه عنه دون ان ينطق بكلمة

١٩

بعد الزوبعة

وبعد ثلاثة اسابيع صار بولس قادراً على المشي . الا انه لم يكن يهتم لشيء مما حوله ولم يكن يعبأ بحنو ام فرجيني وامه ولا يجاوب عن الاسئلة التي كانوا يلقونها عليه . وكان الحزن قد اضعف مدام دي لاتور حتى الموت . ففي ذات يوم قالت له « كلما نظرتك يا بني خيل لي انني ارى فرجيني » فلما وقع اسم فرجيني في اذن بولس اجفل وفرّ بعيداً من مدام دي لاتور . ثم ذهب الى النبع وجلس تحت نرجيلة فرجيني شارد الفكر مبهوتاً . وقد اوصانا الطبيب بان لا نعارضه في شيء ولا نمنعه من شيء بل ان نجاريه في كل ما يرومه طرداً لهذا الذهول . فاطعنا الطبيب ولذلك لزمتُ بولس فكنت اتبع له من ظله . وفي ذات يوم رايته خرج من الحديقة فتبعته من بعيد . فظل سائراً حتى انتهى الى الكنيسة

ولما وصل اليها ذهب الى ظل شجرة كان التراب تحتها رطباً لانه كان محفوراً منذ بضعة ايام . ثم جثا هنالك يصلي . فاقشعر جلدي حينما رايته يصلي في ذلك المكان لان فرجيني دُفنت فيه تحت تلك الشجرة . و بعد حين غادر المكان واوغل في الجبل . فسالته « لماذا صليتَ يابولس تحت هذه الشجرة » فاجاب « كنت استظل بها معها كثيرًا »

وما زال متوغلاً في الحرش حتى اشرف على الميناء . فحينئذ اسرع في السير ونزل الى الشاطىء . ولما وقع نظره على جزيرة العنبر و راى هدوء البحر حولها صرخ بغتة « فرجيني ياعزيزتي فرجيني » ثم انطرح على الارض يبكي بكاءً مرًا

وقد اقام اياماً عديدة على هذه المعيشة وهو يتنقل من مكان الى مكان دون ان يستقر في مكان . فضعف جسمه واصفرَّ لونه وغارت عيناه حتى صار في حال يُرثى لها . فخطر لي ان ابعده عن تلك الاماكن التي كانت تذكره اخته التعيسة لعله يجد شيئاً من السلوى . فكنت اوغل معه في الاحراش والجبال ثم اساله الى اين نذهب الآن . فكان يجيبني : هذه جبالنا فلنعد اليها

فلما اعيتني الحيل من هذا الوجه رأيت محاربة حزنه من وجه آخر . فدفعت اليه في ذات يوم صورة القديس بولس التي وجدتها في قبضة فرجيني يوم غرقها . فلما رآها بدا في عينيه سرور غريب ثم تناول الصورة وضمها الى صدره وصار يقبلها و يبكي . فابتدأتُ حينئذ اعزّيه بالكلام التالي

« نعم يابني هذه هي الصورة التي وجدناها في قبضة فرجيني يوم غرقها . وذلك يدلك على انها حفظت حبك وافتكرت بك الى آخر نسمة من حياتها . ولكن قل لي يا بني ماذا تبكي الآن . وهل تبكي نفسك ام تبكيها

« فان كنت تبكي نفسك فانا لا اجهل ان مصيبتك عظيمة لانك خسرت الابنة التي هي اكثر البنات لطفاً وصلاحاً ولو بقيتْ في قيد الحياة لكانت اكثر الزوجات اخلاصاً . ولكن من ادراك ان هذه الفتاة التي كنتَ تنتظر سعادتك منها لا تكون سبباً في تعاستك وتعاستها معاً لو بقيتْ في قيد الحياة . فانك فتى فقير وهي فقيرة وامك وامها دخلتا في سن العجز فلو اقترنتَ بها و رزقتما البنين لعشتم جميعاً في الفقر والتعب والتعاسة . فاقبل يا بني ما يُرسله الله ولا تعارض في احكام الله

« وان كنتَ تبكيها لانها لا تستحق المصيبة التي وقعتْ فيها فاعلم يا بني انها خضعت للناموس الذي يشمل جميع الكائنات في هذا العالم حتى الممالك والدول . فان حياة الانسان انما

هي عبارة عن منزل يُبنى شيئاً فشيئاً والموت سقفه وبه تمامه وكماله . وكل حي يولد للموت . وقد كانت فرجيني سعيدة لانها ماتت قبلك وقبل امها واهلها . اي انها ماتت دون ان تموت عدة مرات قبل المرة الاخيرة

« ثم فاعلم يا بني ان الموت خير وراحة لجميع الناس . ذلك لانه ليل هذا النهار المملوء بالمتاعب والاحزان والذي يسمونه حياة . فبالموت تستريح نفس الانسان وتسكن كل الآلام والامراض والاحزان والمخاوف التي تعذب هؤلاء الاحياء المساكين بلا انقطاع . سلْ عن الناس الذين تراهم في نجاح وسعادة في هذه الدنيا فانك تجدهم ابتاعوا سعادتهم المزعومة بثمن غالٍ جداً : فانهم لم يحصّلوا الوجاهة في الدولة الا ببذل شيء من الشرف العائلي ولم يحصّلوا المال الا بخسارة صحتهم او دوس ضميرهم واذية بني جنسهم ولم يكونوا محبوبين الى الناس الا بانكارهم ذواتهم وتضحية كثير من مصالحهم . وفي الغالب بعد حياةٍ صُرفت في خدمة الغير واسترضاء الناس وانكار الذات لا يجد الانسان حوله في آخر العمر الا اصدقاء كاذبين واهلاً ناكرين للجميل . واما فرجيني فانها لم تعرف هذه المفاسد الاجتماعية لانها كانت سعيدة من اول حياتها الى آخرها . وقد كملتْ سعادتها بالشجاعة التي اظهرتها في ساعة الموت وهي النعمة التي يهبها الله للفضلاء جائزة للفضيلة

« ومع ذلك فان فرجيني لا تزال حيّة يا بني . انظر الى العالم تجد ان كل شيء فيه يتغير ولا يفنى . وليس في الارض كلها قوة قادرة على ملاشاة ذرة من ذرات المادة بل هي تغيرها تغييراً فقط من صورة الى صورة اخرى . فكيف ان المادة الحقيرة لا تتلاشى ابداً . والروح التي كانت مصدراً للحب والفضيلة والتقوى والحس اللطيف يكون نصيبها التلاشي والفناء ؟ فثق اذاً ان فرجيني حية في العالم الثاني وانها فيه اسعد مما كانت في هذا العالم . ذلك ان الله موجود يا بنيَّ وكل شيء في الطبيعة يدلُّ عليه ويشير اليه . ولست في حاجة لان اقيم لك دليلاً على وجوده اذ لا ينكره احد غير الاردياء الذين يخافون عدله . فهل تظن ان هذا الاله القادر يترك فرجيني الفاضلة بلا جزاء حسن . كلا ولو كنتَ الآن قادراً على سماع صوت فرجيني من مكانها الابدي لسمعتها تقول : « يا اخي بولس . ليست الحياة سوى تجربة . وقد جُربتُ فعملتُ بناموس الطبيعة والفضيلة والحب . ولذلك جزتُ البحار طاعةً لاهلي ثم عدلتُ عن طلب الثروة حفظاً لفضيلة نفسي . وقد فضلتُ الموت غرقاً على خرق حرمة الحياء بخلع ملابسي . فحينئذ راى الله ان حياتي صارت كافية كاملة فاخذني اليه . وبذلك صرتُ في مأمن من الفقر والنميمة والزوابع ومنظر شقاء الغير .

ولم يعد يصل اليّ شيءٌ من المصائب التي تعذب الناس : فكيف يجوز لك البكاء عليّ بعد هذا النعيم الذي صرتُ اليه . لقد اصبحتُ نقيةً صافية كذرةٍ من النور في الفضاء : فعلامَ تدعوني للهبوط الى ظلام الحياة . يا اخي بولس . ان ما ذقته معك من السعادة والهناء في الارض ليس الا جزءًا من السعادة والهناء اللذين يذوقهما القادمون الى هذا المكان . فانني هنا قريبة من مصدر تلك السعادة ونبعها الاعلى . وانا اذوقهـا بحواسٍ كاملة لا بحواس ناقصة كما كنتُ في الارض . فسكن حزنك يابولس . يازوجي الصغير . يا من ساذوق معه هنا السعادة كاملة . وارفعْ نفسك عن الارض لتحتمل متاعب الحياة الوقتية »

وكان الانفعال لهذا الكلام قد بلغ مني مبلغه فسكتُ حينئذ دامي القلب . اما بولس فانه حدّق فيّ وقال : « لقد ذهبتْ لقد ذهبتْ » ثم اصيبَ بضعف شديد . ولما عادت اليه قوته قال : « بما ان الموت راحة كما تقول وفرجيني سعيدة في العالم الثاني فانا اريد ان اموت لاتبعها وانضم اليها » وهكذا اثر كلامي فيه تاثيرًا منافضًا للتاثير الذي تعمدته . ذلك لان مصائب الصبي تقوي الانسان في بدء عمره وتجعله قادرًا على احتمال مصائب الحياة و بولس لم يكن قد اصيب بمصيبة في صباه

٢٠

الخاتمة

فعدتُ حينئذ ببولس الى المنزل . ولما وصلتُ اليه وجدتُ مدام دي لا تور في ضعف مستمرّ . واما رفيقتها مرغريت فانها كانت اشدّ ضعفًا منها . ذلك لان النفوس الشديد المتحمسة يصيبها الوهن والخوار بازاء المصائب الكبيرة ولئن كانت المصائب الصغيرة لا تؤثر فيها

وحين وصولي الى المنزلي اخبرتني مرغريت بانها رات في ليلها حلمًا غريبًا . قالت : انني رايت فرجيني مرتدية باثواب بيضاء وهي تتنزه في حدائق غناء . وبعد برهة دنت من بولس ضاحكة وجذبته اليها . فلما رايت ذلك هممت بان امسك بولس فشعرت بانني اسير معه ايضًا . فالتفتُ لاودع صديقتي مدام دي لا تور فرايتها تتبعنا مع الخادم دومنيك والخادمة ماري . فما قولك في هذا الحلم

ومما زاد استغرابي ان مدام دي لا تور قد رات في تلك الليلة نفسها حلمًا شبيهًا بهذا

الحلم ايضاً . فقلت لهاتين السيدتين : كثيراً ما صدقت الاحلام وكانت انذاراً للناس .
ولا غرابة في ذلك فانه اذا كان الانسان الضعيف قد استطاع ايصال ارادته من اقصى
الارض الى اقصاها بوسائط سرية لا يطلع احد عليها فهل يُستغرب انّ العناية التي تحكم
العالم توصل الى البشر ارادتها بوسائط سرية ايضاً (١) ولماذا لا يكون الحلم احدى هذه
الوسائط . بل لماذا نشك في صحة الاحلام أليست الحياة وملاذها الزائلة ومشروعاتها الفانية
من قبيل الاحلام ايضاً



النوم الابدي

ومهما يكن من الامر فقد صدق وا اسفاه حلم هاتين الصديقتين . فان بولس توفي من
الهم والحزن بعد انقضاء شهرين على غرق عزيزته فرجيني . وامه ماتت بعده بثمانية ايام . ثم
تبعتها مدام دي لا تور والخادمان . وهكذا انقرضت هذه العائلة الفاضلة التي عاشت في
الفضيلة والصلاح وماتت في الحزن والهم . كأن الفضيلة والصلاح لا جزاء لهما
في هذا العالم

اما عمة فرجيني الغنية في اوربا فانها لقيت عقابها . فانها اصيبت في آخر عمرها
بالجنون فسجنت في مستشفى المجاذيب . وكانت تقول لكل صادر ووارد : ان مبادىء
الرحمة والشفقة والانسانية والفضيلة والدين انما هي مبادىء وهمية يسنها الملوك ورؤساء

---

(١) يتكلم المؤلف هنا عن ارسال الرسائل من جانب في الارض الى جانب آخر
فماذا كان يقول لو عاش في هذا الزمان ورای التلفون والتلغراف بسلك و بلا سلك

الاديان للشعوب كبحاً لجماحهم واخضاعاً لهم

ولقد دُفن بولس في قبر عزيزته فرجيني جنباً الى جنب تحت الشجرة التي كانا يجلسان في ظلها . ودُفن حولهما امّاهما المسكينتان وخادماهما الامينان . ولم يقيموا فوق قبورهم آثاراً رخامية ولا نقشوا فوقها كتابات تدلّ على فضائلهم ومع ذلك فان ذكرهم بقي خالداً في نفوس الذين احسنوا اليهم . ذلك لان ارواحهم لا تحتاج الى الابهة والفخفخة التي كانوا يجتنبونها في حياتهم . ولكن اذا كانت ارواحهم لا تزال تهتم بما يحدث في هذا العالم فانها يلذ لها ولا شك ان تطوف الاكواخ التي تسكنها الفضيلة النشيطة لتعزي فيها الفقير الذي يشق عليه فقره وتبث في نفوس الفتيان والفتيات المتحابين حرارة الحب الطاهر والميل الى الخيرات الطبيعية وحب الجدّ والعمل والفرار من الغنى والثروة

فيا ايها الفتى والفتاة اللذان اتحدا في موتهما كما كانا متحدين في حياتهما . يا ايتها الامان التعيستان والعائلة العزيزة . تبكيكم هذه الاشجار التي غرستموها وكانت تظللكم . تبكيكم هذه الينابيع التي كانت تجري من اجلكم . تبكيكم هذه الآكام التي كانت مقيلاً لكم

اما هذه الارض التي كنتم تزرعونها فلم يجترىء احد على زراعتها بعدكم . وهذه الاكواخ التي كنتم تسكنونها لم يرممها احد بعد وفاتكم . اما شياتكم فقد صارت وحشية . وطيوركم تفرقت فراراً من هذه الوحشة . واشجاركم المثمرة يبست ودب الفناء اليها . ولم يعد يُسمع في هذه الاماكن الا اصوات العقبان التي تحوم حول الكوخين

اما انا صديقكم فانني اصبحت بعدكم كصديق لم يبقَ له صديق . وكابٍ فقدَ جميع ابنائه . وكمسافر يتيه من مكان الى مكان في هذه الارض التي بقيتُ فيها وحدي »

ولما اتى الشيخ على هذه الكلمات نهض وسار في سبيله يذرف الدموع من الم التذكار . ولقد جرت دموعي غير مرة مثله في اثناء هذه القصة المحزنة

تمت